
الطبعة الثانية
الميدان
أبو عبدو البغل
كرم صابر
مجموعة قصصية
اكتب

الميدان

مجْمُوعةٌ قَصَصِيّة

كرم صابر

مجموعة قصصية : الميدان
كرم صابر

الطبعة الأولى: ٢٠١١
الطبعة الثانية: ٢٠١٢
دار اكتب للنشر والتوزيع

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢١١
I.S.B.N:978-977-488-120-4

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية جديدة : ٢٠١٥

إهداء
لأرواح الشُّهداء
الذين طهَّروا
تراب بلادى

"تنويه"

تعود فكرة إصدار هذه الكتاب لصديقة عزيزة أعتبرها مرشدى، انتقدت كتاباتى المستمرة عن الأوضاع والضحايا دون ذكر لأحداث ميدان التحرير، طلبت منى سرد حكايات مختلفة عن ما نقرؤه فى التقارير المحلّية والدولية.

كنت أجهّز عدّتى لأكتب رواية عن هؤلاء البشر، لكن الوقت المُهدَر يمنعنى من إنتاج العمل الروائى، ويسجل المشاعر التى انطلقت للشوارع أيام الغضب، رغم تردّدى فتحت كيس المشاعر ؛ لألتقط فأسى، وأحرث أرض وحوارى وميادين وسماء بلادى، لأسجل بعض المشاهد والانطباعات، وآمل أن ينتج عملى المتواضع حكايات شيقة تدعم الأمل والحب والخلاص.

البداية

منذ زمنٍ طويل كنّا سعداء بمصيرنا، ومبتهجين بعلاقتنا الجديدة والقديمة، تعوّدنا على الرزق القليل، وطعن الآخرين دون أن نُحس بوخز الضمير.

كانت السيارات تجرى فى الشوارع دون التزامٍ بإشارات المرور ؛ لأنَّ الشرطى الذى ينظم الحياة ارتضى أن يأخذ من المخالفين ثمن جهلهم دون عقاب، انتشرت الحياة المؤلمة، ملأ الكسل أروحنا اليائسة، ارتضينا الموت دون حضور الأحبة، لم يكن هناك أحد يتمنّى أن يرى الآخر.

فى هذه اللحظة سمعنا طلقات الرصاص فى الشوارع، نزلنا مُهرولين من شققنا نحو الصوت، فُوجئنا بالشوارع الغريبة مملوءة بغاضبين، يمسكون السواطير والسيوف، ويمشون بجوار بعضهم فى حذرٍ رهيب، يبحثون عن مساحةِ للأقدام، حتى لا تتخبط أجسادهم بالأسلحة البيضاء التى ملأت سماء المدينة.

لم تكن إلا لغة العيون، نزل الصّمت على الألسنة، أخرس الجميع، لم يعد إلا صوت الرصاص المنطلق فى السماء، دون معرفة مصدر الصوت، الجميع ظل مندهشًا صامتًا، لم تعبر عيونهم إلا عن اليقظة.

كانوا نائمين مئات السنين، صحوا فجأة ليمسكوا بالسواطير، هاربين من منازلهم إلى الشوارع، يواجهون عيونهم المرعبة عن قرب.

جلست على المقهى أسمع تفسيرًا لما جرى مُتحديًا الزمن لإجباره على التوقّف، الجميع صرخ بصمتٍ فى العتمة لتظهر السماء.

مر اليومِ منذ الصباح، كأنه خارج حساباتنا، الأولاد والملتحون والمجرمون، وبعض الرجال والنساء ملؤوا الشوارع بعد انتهاء صلاة الجمعة، وصرخوا بصوتٍ واحد "باطل".

ردّد المجتمعون بالشارع وراءهم، لم يهب أحد سماء وسحب القمع التى نسجها الحكّام منذ أزمنة بعيدة، لم تكن صرخاتهم تصل للسماء، لكنها وصلت لبعض النائمين بالشقق ونساء المنازل وأَطفالهنَّ، ففتحوا الشبابيك المغلقة، ظلّوا يبحلقون فى الثائرين بعيونهم وأفواههم المفتوحة.

سألت زوجة "فهمى" من شباك البلكونة جارتها : "مين دول يا "أم محمد"؟! قالت الجارة بطيبة : "إنَّهم بقايا الناس ".

لم تفهم زوجة "فهمى" شيئًا، عادت لشقتها، وجدت زوجها يلبس بنطلونه دون أن يناكفها، خرج من باب الشقة، قال لها : "خلّى بالك من العيال"، قالت له : "على فين يا "فهمى"؟!" لم يرد عليها، نزل مُسرعًا درجات السلم.

كانت تجربة مُذهلة لـ "فهمى"، تمردًا على عشرات السنين من الالتزام والعمل منذ زواجه بـ"هنية"، وإنجاب طفليه "هيثم وهناء"، كانت الدنيا كلّها تضبط نفسها على ساعته، لم يخطئ أبدًا فى الواجب رغم الغدر الذى تلقّاه طوال العمر الطويل، نسى بفخر بداية قبوله عبادة الشعار المرعب : "المسئولية".

حصيلته الوحيدة التى يرتكن إليها هى الصبر والأمل، حين سمع صوت المحتجين بالشارع "باطل"، قرّر أن يغير عادته، نزل درجات السلم ؛ ليلحق بهم دون أن يعرف مصيره.

تساءلت "هنية" باندهاش : "كيف استطاع النوم يوم الجمعة ويترك الصلاة بالجامع؟! لم ينزل فى العاشرة ليشترى الفول والطعمية، ويعود للإفطار معنا، خلال السنوات الماضية منذ زواجنا، لم يأكل معنا إلا هذا اليوم، كيف استطاع أن يترك الأكلة الوحيدة التى يتناولها، ويغادر دون أن يرد على سؤالى : "على فين يا "فهمى"؟!"

لحق بالغاضبين فى الشوارع، ردّد وراءهم دون أن يفهم سبب ذلك "يسقط النظام"، لم يندهش فقط بهذه العيون التى تجرب لأول مرة فى حياتها السير بالشوارع مجتمعة، لم ترهبه نظرات المخبرين المحيطين بالغاضبين، حين صمت الجميع عن الهتاف، صرخ "فهمى" "الشعب يريد إسقاط النظام"، ردّد الجميع وراءه، فصرخ : "باطل"، فعاودوا الصراخ : "يسقط النظام".

وقتها لمح عيون المخبر السرى تنظر إليه كالثعبان، لفّ رأسه ناحية "فهمى"، وأشار بالصمت ليصرخ : "الشعب المصرى فين؟" كان شابًا صغيراً فى العشرينات، لكن لون عينيه الأبيض المصفر ينضح بالرعب والخطر، حين التفَّ ناحية "فهمى"، ليسكت هتافه ويزرع الخوف والفرقة، تأكد أنّه مبعوث الأجهزة السرية، صرخ "فهمى" فى الجميع : "باطل"، قالها بقوة ولم تُخفه نظرة الشر التى أطلقها المخبر، لم تُخفه هويته، أعاد التوازن فى السماء، فتحت النساء والبنات الصغيرات الشبابيك أمام مقهى الصعايدة؛ ليصرخن ابتهاجًا بالجميع : "إحنا معكم.. أنتم أولادنا.. أملنا وبكره اللّى جاى".

لم يفهم "فهمى" كيف انضمّ الشيخ "حمدى" للجمع الكبير؟ صرخ بالمجتمعين ليعيدوا الهتاف مُنددّين بالظلم، دارت المسيرة بمعظم شوارع وحوارى الحى.

حاول المخبر الثعبان الذى كان يلبس فانلة بنصف كم، ومفرود العضلات ترديد الشعارات ؛ ليحافظ على هتاف المسيرة مُنضبطًا، ردّد مع الشيخ "حمدى" بعض الهتافات، ليظهر ضعف الناس فى الشرفات : "الصحافة فين؟.. الشعب المصرى أهو".

قال الشيخ "حمدى" وهو محاط بالمجتمعين: "كفاية كدة يا رجالة، هنكمل بعد العصر".

وقف الرافضون مذهولين وهم يصرخون : "لن نعود لديارنا"، تركهم الشيخ "حمدى" والمخبر السرى، وسارا ناحية الجامع، لكنَّ الغاضبين قرروا الاستمرار بالمسيرة، صرخوا فى وجوه بعضهم، هتف "فهمى" صارخًا ملبيًا دعوتهم : "باطل"، ردّد الجمع وراءه النداء، ساروا باتجاه شارع البحر مُرددين الهتافات التى أطلقها الأبطال الذين خرجوا دون دعوة.

انطلقت جحافل الأمن المركزى تحيط بالغاضبين، تفرقوا دون اتفاقٍ ليدخلوا الحوارى الجانبية، التقوا بسرعة أمام قسم الشرطة، لتبدأ معركة لم يكن يتصوّر "فهمى" أن يشارك فيها.

جموع الغاضبين المملوءة عيونهم بالقوة اجتاحت أبواب القسم، وخلعت القضبان والأبواب، كانت طلقات الرصاص مُدوية من شبابيك القسم، لكنَّ الغاضبين لم يُهبهم سقوط القتلى جوارهم، استمروا فى التدفّق نحو حجرات الظلام يحرقون الأوراق والملفات، كان "فهمى" يقف بعيدًا يتأمل ما حدث، ويتساءل : "أين الضباط والمخبرون الذين أشبعوا الناس ذلاًّ؟!" أجابت الرصاصة الطائشة من خلف الجدران على تساؤله المحير.

الشىء المرعب أنّ أحدًا لم يهتم بمداواة جرحه النازف، أو يسمع صراخه، ملأت رائحة الرصاص الشوارع المحيطة بالقسم، تذكّر وهو مُلقىً على الأرض طبق الفول وجلسة الأولاد والزوجة، تمنى أن يروا جسده المقاوم للألم، ليغفروا أوامره وقسوته عليهم، هرست أقدام اللصوص والمخبرين روحه، لتطير للسماء مذهولة بحبّ الحياة ورائحة الحرية ؛ ليحرق للأبد مبادئ الالتزام والخوف.

الذاكرة

ليس هذا الميدان الذى أعرفه منذ عشرات السنين، لم تعد تعرفنى محلات شوارعه المحيطة، كنت أستمتع بالترجّل فيها وحدى، حالمًا بمستقبل لأولادى، بعد تخرجهم من الجامعة ؛ ليعملوا بالوظائف المحترمة!!

اليوم فاقت صرخات وهتافات المتظاهرين حدود التصور، كانوا مدهشين وهم يصرخون "ارحل.. ارحل".

أعادتنى الهتافات للماضى الذى راح أدراج الرياح، قال أحد الناس صارخًا بجوارى : "كنّا جميعًا هناك، تقابلنا مع بعضنا البعض، لكنّ أحدًا منا لم يتعرّف على الآخر، كنّا أصدقاءَ قدامى، جرى الدّم المشترك فى عروقنا يومًا ما ".

نظرت ناحيته، كان صديقى، تعرف علىّ دون تذكُّر اسمه، تركنى وغادر ناحية الجموع الغفيرة، الهتافات تملأ السماء بسقوط العرش، شباب من الجنسين يخترقون الحواجز، يهتفون صارخين : "يسقط الخونة.. الشعب يريد تغيير النظام".

تلاقت وجوهنا، سلمنا على بعضنا، كان رفيقى، عشنا أيامًا صعبة مشتركة، استأذننى فى صمت، تركنى مُتجهًا نحو الجموع فقلت لنفسى : "كنا أصدقاء، كيف افترقنا وفقدنا ذاكرتنا كلّ هذا الوقت؟!" ظلّت أجسادنا متلاصقة لدقائق، لكنَّ الدّفء اختفى فجأة، هل كنا فعلاً أصدقاء جرت بينهم مياه الحبّ؟ من الذى وضع هذه المسافة الكبيرة بيننا؟ لم تُوحّدنا الأصوات التى تخرق الميدان وطلقات الرصاص المطّاطى، وقذائف قنابل الغاز المسيل للدموع المنطلقة حولنا، وجعلتنا نجرى مهرولين، فاختفينا عن بعضنا البعض مرة أخرى.

سألت نفسى بغرابة : "من الذى دعى أصدقائى للنزول من منازلهم، وتَرْك عملهم ليسمعوا هتافات الغاضبين ولا يردّدون؟! كانت وجوههم غريبة وهم يشقّون الميدان بحثًا عن بعضهم متسائلين : "عامل إيه؟" كانوا يستغربون وجوه المتظاهرين، ويسألون أنفسهم : "كيف خرجوا دون أن نعرف موعدهم"؟!"

الجميع خرج باحثًا عن أمل، اعتقد أنّه سيجده وسط الجموع الحاشدة، كانت عيون المتظاهرين بريئة لدرجة أذهلتنا جميعًا، تسألنا : "من هؤلاء؟ من أين جاؤوا؟ كيف اتفقوا مع بعضهم البعض؟ منْ يقودهم؟ كيف تربّوا بعيدًا؟ من لقّنهم دروس المقاومة؟!"

كانت الأصوات بالميدان تخترق السماء، منعت حواجز الشرطة المنتفضين من الاستمرار فى احتلال الشوارع، أحاطوا الميدان بسياج حديدية، وسياراتٍ مُجنزرة.

اتجهت ناحية شارع "شامبليون"، قابلتنى امرأة مختلّة، ترفع علم البلاد، قالت : "عامل إيه؟" نظرت إليها ببلاهة ولم أرد، كانت تأمل أن أتعرف عليها، لكن صديقى الذى كان قد هاجر لأمريكا احتضننى وقال : "ألف مبروك"، لم أرد، فكرر تهنئته، فرددت ببرود : "الله يبارك فيك".

عاد من الغربة راغبًا استعادة البراءة، وتطهير القسوة التى دفعته لترك المقر الذى كنا نستقبل فيه أهل الحى، مبتهجين بتعليمهم حب الحياة، يومها قلت له :"كيف ستتركنا دون استكمال دورة الرسم والموسيقى؟!" تركنى مدفوعًا لملء روحه بعيون ورائحة المتظاهرين الذين يُندّدون بالعرش.

كانت الطائرات الحربية تُحلّق فوق الميدان لتُنزل الرعب فى القلوب، كان صوتها مُوحشًا، فلم نتمكّن من سماع الهتافات العالية، رغم الحشود الهائلة التى تهتف "ارحل.. يعنى امشِ.. ياللّى مابتفهمشِ" .

تمكن الميدان من إعادة أصدقائى الذين لم يندهشوا لحضورى، رغم افتراقنا عشرات السنين، قهروا القيود التى لفتها عساكر السلطات، واضطروا إلى التراجع بمتاريسهم للشوارع الخلفية، حتى لا يختنقوا برائحة المتظاهرين.

تساءلت بحسرةٍ وأنا أقترب من مقهى "صالح" : "كيف لم أتعرف عليهم؟! لماذا لم أتمكّن من الصراخ فى وجوههم كعادتى، وأقدّم لهم الحبّ؟" ورددت بصوتٍ مسموع : "أنت المُدان، هل يعُقل أن يكون كلّهم مذنبون، أنت الوحيد الذى ارتكبت الفاحشة ".

أىّ صدقٍ أصاب قلبى هذا اليوم؟ أىّ كرهٍ أصابك لتنظر فى عين صديقٍ لم يرك منذ سنين؟ ودون أن تنطق تعاتبه على ترك المقر والأطفال الصغار دون أن يستكملوا دروس البلاغة والتاريخ والشعر، تركت نفسك للغل، تمكّن من قلبك، فنسيت بهجتهم، كيف استطاعوا أن يهزموك فى قلبك، ويجعلوك تغدر بهم لتقول لنفسك فى النهاية : "أيّها المجرم لا يجوز أن تجلس وسط الميدان، عُد إلى عملك وأولادك، ومجدك الزّائف؟!"

رأيت كلّ الذين عرفتهم، أو هكذا تهيّأ لى، شاهدت الطبيب النفسى الذى عالجنى منذ عشر سنوات يقف بقلب بالميدان، يرفع كارتًا أحمر بيديه، ويربط رأسه بعلم البلاد، ويصرخ بصوتٍ عالٍ : "برة.. اخرج برة".

اقتربت منه ونظرت لوجهه مُوجّهًا التحية، لم يرد علىّ، قال بصوت عالٍ وهو يرفع الكارت الأحمر "برة يا مجرم"، أدركت وقتها لماذا ازدادت نوبات صرعي، وأنا أُواظب على زيارة عيادته!!

رأيت صديقًا آخر مُتأبّطًا يد زوجته، ويسير مع أولاده، نظر لعينىّ، ولم يرانى، قالت امرأته بعد أشارتها إلى جسدى: "صاحبك.. صاحبك"، لم تكن تعرف أنه قطع علاقتنا بعد أن ضحكت بخلاعة أمامى، أثناء إلقائه لنكتة عن البلاد الغريبة التى عاد منها مملوءًا بالنقود والذهب؛ آملاً تعويض أبنائه المحرومين من الحبّ.

قابلتهم فى هذا اليوم وكأنّهم لا يعرفونى، حتى من سلم علىّ، لم ينظر فى عينىّ، حاولت تذكيرهم باسمى وعملى، وتاريخنا المشترك، كانوا ينظرون للسّماء بحيرة، ويتركونى دون مشاعر، قلت لنفسى: "كيف يمكن أن نفقد ذاكرتنا وننسى عشرات السنين والمواقف، والمشاهد التى أبهجتنا وأحزنتنا؟!"

الشىء الغريب أننّا فقدنا كلّ شىء، مسحت صرخات المنتفضين وهديرهم كلَّ المواقف من ذاكرتنا، وعُدنا فرقاء من جديد.

لم يكن لأسئلتى معنى، لأنَّ الصرخات المنطلقة من العيون تطمس الماضى والأحاسيس.

قابلتنى والبهجة تملأ وجهها، قالت بشماتة : "لماذا لم تنضمّ إلى حركتنا التى انطلقت من الموقع الإلكترونى للضحايا؟! ودون داعٍ، صرخت فى وجهى بِلوع : "نحن من نظّم هذه الثورة"، قلت ببلاهة: "من أنتم ؟!"

كانت زوجتى الوحيدة التى تدفعنى للخروج منذ أن عمّت المظاهرات أرجاء البلاد، كانت تصرخ بوجهى حين أعود للمنزل : "العالم بيتغير، والمجرمون بيضربوا الناس وأنت هتنام جنبى، وتسألنى عن دروس الولاد! "

تأكدت أنَّها العاقلة الوحيدة، كانت تقف على أرض صلبة، وتدفعنى للجنون، لم أكن أستحقُّها، حبستها بالمنزل لتربّى العيال، أجبرتها على العمل كموظفة حكومية لتتركنى فى حالى، وتنشغل بشىء آخر خلاف علاقاتى، قلت لها مرات كثيرة : "لا يهّمنى ما تفعلين فى حياتك الخاصة، المهم هو استمرار البيت والعيال!! هم الشىء الباقى لنا"، كانت تضحك منّى أو علىّ، وتقول : "ماذا سيفعل لنا الأولاد حين يكبرون، ويعيشون بعيدًا عنا، المهم إحنا نبقى كويسين!!"

كنت كالكلب أعضّها بعمق أنوثتها، أصرخ فى وجهها، أتهّمها بخيانة الأمانة التى وُلدت من أجلها، أنظر إليها كالذئب، راغبًا التهام لحمها، كانت تقول "معلش يا خويا.. خلاص أنا غلطانة وأنت صح"، كانت تأخذنى على قدر عقلى، هذه الأيام لم تخيفها نظراتى، تنتظر عودتى كل يوم لتسبنى، تتهمنى بالجبن لأنَّ الدنيا تتغير، وأنا لازلت مندهشًا من الأحداث.

مسا... مسا

شاهدت عيونًا لبشر لم أتوقّع وجودهم فى بلادى، نُزِعت منهم البراءة والمشاعر، تحسست القلوب والشوارع والخطوات، باحثًا عن مساحة أتحركَ فيها دون إخافة المارة، لكن عبثًا فشلت.

ينظر المارة لبعضهم البعض فى غضب، داخلين فى ا لمساحات المشتركة التى اعتقدوا أنَّها ملكهم.

لم يكن هناك طريق للعودة للمنزل إلا بركوب تاكسٍ، بعد اختفاء الباصات العمومية، أشرت لسائق مفتوح الوجه، توقّف على غير توقّع، ركبتُ مسرعًا، وقلت : "الورّاق يا أسطى!" كان يتحدّث بصوت عالٍ دون أن يرانى، قال بهستريا : "البلطجية الآن يتحكّمون فى كلّ شيء، كلّ خطوتين لجنة توقفك ؛ لتمنع وصول الطعام للميدان"، قلت له : "إنّه يوم الجوع".

فتح المذياع، صرخ رئيس الوزراء قائلاً : "لازم يستحمل النّاس شوية، فرق الجيش بين المنتفضين وبقايا النظام القديم، سوف نفتح تحقيقًا لمعاقبة مرتكبى المجزرة"، واعتذر عن ما جرى ليلة الأمس، قال الرجل باندهاش : "رئيس الوزراء يعتذر بكلّ وضوح "، قلت : "يقتلون القتيل، ويمشون فى جنازته!!"

صرخ السائق قائلاً وكأنه يحكى عن الأساطير : "مبقتش عيشة يا أستاذ، العيال فى اللَّجان الشعبية ماسكين السواطير والسّنج والطبنجات، كأنهم شياطين، يطلبون الرخصة كلّ شوية، المشكلة أنَّ رخصة العربية مُنتهية، يقلبون وجهى، ويقولون بجرأة غريبة "بس الرخصة منتهية يا أسطى"، أسخر منهم، وأقول : "اسحبها يا باشا وادينى وصل!" ينظرون بغيظ فى عينى، ويقول أخطرهم : "عدَّ يا لمض.. عدَّ يا خويا".

استكمل حكايته دون اهتمام بوجودى : "عدت بالأمس من عند "شيراتون" المطار إلى ميدان رمسيس فى ست ساعات، كل خمسين مترا يوقفنى الشباب المسلّح، معظمهم تجار مخدرات وبلطجية، أتشمّم رائحتهم بخبرتى، كل يوم يغيرون كلمة السر ليلة الأمس كانت "رفع مساحات العربية"، ونور الانتظار كان علامة المرور ليلة أول الأمس".

حكى السائق حكايات غريبة وعجيبة عن مظاهرات بقايا النظام، قال : "الواد صنقر"، و"سيد دفعة" تجار المخدرات أعطوا للمرشدين السريين المنشَّطات والبراشيم ليتسلَّحوا بالسنج، بعضهم حمل بنادق آلية، جروا فى الحى يصرخون "عايزينك يا حسنى... يا حسنى عايزينك".

الشىء الغريب أنَّ بعض العمارات ألقت على رءوسنا بالمياه العطنة.. آخرون صرخوا فى وجوهنا من البلكونات لرغبتهم فى انتخاب مرشّح الأجانب "المعدّاوى" الذى خان المسلمين فى العراق، وسلّم لأمريكا مفاتيح البلاد.. تسليم أهالى".

سألته : "هل حمل المتظاهرون الذين طالبوا بعودة "حسنى" السلاح؟" قال : "نعم سلّحنا "صنقر" و"سيد دفعة"، أقولّك على حاجة فى سرك : "ادوا لكل واحد فينا خمسين جنيهًا، بعد ما خلّصنا المظاهرة طالب الشباب مزيدًا من الثمن، قالوا : "عايزين نتعشّى"، شخر "صنقر"، لكن "سيد دفعة" أعطى شريط برشام زيادة لكل بلطجى!!"

"يا أستاذ اللَّى رتّب المظاهرة رُتب كبيرة من البلد، بعضهم مشى معنا، طلبوا من خمسة بلطجية رفع البنادق الآلية والسير أمامنا، طلبوا من آخرين حماية المظاهرة من الخلف بطبنجات، لفينا شوارع الحى، طلعنا من السنترال على القسم، وقفنا أمامه، رددنا هتافًا انتشر فى كل مصر، "اللى يحب مصر ما يخربش مصر"، والله العظيم إحنا اللَّى طلّعنا الشعار ده، بعد كده ييجى واحد فى التليفزيون يقولّك إحنا اللَّى بدعنا الهتافات الحلوة اللَّى حمت مصر!!"

" أنت عارف يا أستاذ يوم ما القسم اتحرق دخلت لقيت عيل ماسك سنجة، ومبشل فى خده قالِّى : "عايز حاجة يا صاحبى؟" قلت له : "مسا.. مسا!" دى كلمة السر، علشان يعرف أنِّى من المحابيس!!"

قالى : "شوف رزقك، دخلت جوه أدّور على حتة حشيش فى حجرة الأحراز، أنت عارف لمَّا العيال هاجمت القسم، رئيس المباحث ضرب واحدًا فى قلبه بالنار ومات، لكنَّ العيال ماهمهاش، حرقت الأبواب وسرقت الشبابيك، وعذبت رئيس المباحث، خلعوه هدومه وسط الشارع، ونزلوا عليه كأنّه ذبيحة".

قلت له : "إزاى عملتوا كده"، قال : "يا أستاذ دى لحظة موت، كان لازم ضباط القسم والأمناء يهربوا، ما هو يا قاتل يا مقتول، العيال أخذوا خزنة القسم والأحراز والبنادق والأوراق، بس يوم المظاهرة التى نادت ببقاء "حسنى" وقفنا قدام القسم المتخرب شوية، بكت رتبة كبيرة على حال البلاد، هتفنا معهم دون أن ندرى "اللَّى يحب مصر ما يخربش مصر"، ردّد الناس كلّهم وراء الرتبة الكبيرة.. يا "حسنى".. عايزينك.. يا "حسنى" ".

"كنّا إذا مررنا على لجنة شعبية نُطلق النار على البلطجية والمرشدين السريين، كنا نعرفهم فيفتحوا الطريق، نسبهم ونأخذ بعض سيوفهم".

قلت : "ألم تخف؟!" قال : "يا عمّ العيال كلّها مبرشمة، وعندها استعداد تموت، مفيش قلب، نزعوا الأحاسيس منا قبل المسيرة ".

كـان البيـت قـد اقـترب وهـو يلاغـى اللَّجـان الشـعبية، يفتحـون الطريـق ويضـحكون، ويشتمونه ويشتمهم، اندهشت حين وقف أمـام منـزلى، وقـال بثقـة : "أنـا عارفـك يـا أسـتاذ، مكتبك فى وسط البلد، بالأمارة عندك ولدين فى الإعدادى، ومراتك شغّالة فى المستشفى العـام، إحنا جيران ".

تركت له الأجرة وأنا مندهش من رفع الحواجز أمامه، وعلمه بِمهنتى وسـن أولادى، قـال وهو يودّعنى : "ما تخفش هتعدّى على خير إن شاء الله".

مدينة الموتى

تحول وسط القاهرة لمدافن، ارتفعت بيوتها لتخليد ذكرى الأشباح، وقف أصحاب المحلات والعاملون كالغرقى فى دكاكينهم المفتوحة، المقاهى أغلقت أبوابها باستثناء من رفع نصف بابه كأنّنا بشهر رمضان، امتلأت الشوارع بعشرات البلطجية والمخبرين يرفعون الشماريخ، يبحثون عن بقايا الأبطال.

كنت أسير أمام فندق "وندسور" بشارع الألفى، حين ألقوا القبض على شابة صغيرة تلبس جلباباً أسود، يرافقها شاب وسيم امتلأ وجهه بالبراءة، يمسكون بأيديهم أكياس الفينو وبعض الكيك، قالوا وهم يشدّون ملابسهم : "خربتو البلد يا ولاد الكلب"، لن نترككم إلاّ إذا سلمناكم للسلطات، بكت البنت وصرخت : "سيبونى"، لكن قلوب الموتى منزوعي المشاعر أصنجت، ورفضوا إغاثة صبية تطلب الغفران.

الجميع وقف متخاذلاً مكتفيَا بالفرجة، ركنها المخبرون على حائط الفندق مُدَّعين الشرف، وكتّفوا الشاب الذى يرافقها، ونزعوا غطاء رأسها، وجروهم للسلطات بعد أن استولوا على الطعام.

جلست على المقهى المقابل للفندق حتى لا يشكّ المخبرين فى هويتى، وقبل شرب الشاى حاسبت القهوجى مُحاولاً النجاة.

انتابتنى مشاعر الضيق والخوف، قلت لنفسى : "كان من المفروض الدفاع عنها ليتروكها"، كان الرعب يملأ الشوارع الجانبية، لم يعد إلا وجوه الإجرام ترفع الشماريخ لوقف المدد للثوار، قال كبيرهم : "يمكننا أن نحرمهم من الماء والطعام، فينفضُّوا مهزومين بالعطش".

اتصلت بالسائق ليعيدنى للمنزل، رد علىّ برعبٍ قائلاً : أنتظرك عند دار القضاء العالى"، أثناء الرحلة القصيرة من شارع الألفى مُروراً بشارع عماد الدين ، شاهدت الموتى بالمدينة يفتّشون السيارات بغلٍ باحثين عن الماء والطعام.

كانوا يقفون بالملابس المدنية مرعوبين، يطلبون من السائقين فتح الشنط الخلفية، لم يجرؤ أحد فى شوارع القاهرة أن يشترى أرغفة العيش أو الفينو، إلا وقام الموتى بالقبض عليه، وتسليمه للسلطات بتهمة مدّ المنتفضين بالطعام.

فى اليوم التالى صحا الناس مرعوبين، لم يصدقوا ما شاهدوه بأنفسهم، كانوا جزءاَ من الأحداث التى مرت بها الشوارع ليلة الأمس، فتحوا المقاهى والمحلات مملوئين يقظة، فى محاولة لطرد الغيبوبة، نظروا لبعضهم البعض، وتساءلوا بخسة وخوف : "هل نحن شاركنا بليلة نَشر الرعب بأرواحنا؟!" أعادوا النظر لبعضهم، وقرروا المقاومة.

أرسل الجميع للمنتفضين دعوات الأمل والنصر، ملأتهم بقوة هـزت عـرش المـوتى، أطلـق الثوار بميدان التحرير نوراً ليعمّ على باقى القطر، جلسوا يتـدفؤون حـول النـار ليزيحـوا الـبرد عن أجسادهم.

أذهل إصرارهم بقايا السلطات، فقرروا إعادة تشكيل العلاقـات الجديـدة، أعلنـوا انهيـار النظام، ووضع الغاضبون بالميدان المتاريس البشرية خلف بعضها مسـلحين بالحجـارة ليـأمنوا غدرهم.

فى هذه الليلة ارتفع فوق سماء الميدان قمر أبيض، أضاء الليل رغم ظلام الشوارع، وطهر الأحياء، انتشر النور رُويدًا رُويدًا، ليسرح على الحوارى والقرى، ليحميها من فلولهم المجرمة.

فى هذا التوقيت بكت حبيبتى لأنّها لم تكن معهم فى المشهد الأخير، عنفّتنى لأنَّى نصحتها بألاّ تذهب حتى لا يؤذيها أحد، أصرت على الـذهاب لتمتلـئ بـالنور، وتتـدفّأ بهمـس الحـب، وقالت حزينة: "عايزة أحس بروح الميدان".

تركتها لتستمتع ببهجة الانتصار، ووقفت أعلى الكـوبرى الـذى أتى منـه الخونـة فى الليلـة الماضية، ليغتالوا البراءة، قلت لنفسى وأنا عائد لعملى : "كيف تركتها وحدها رغم أنَّنـى كنـت شاهدًا على غدر الموتى بالأمس؟!"

الحسرة

شاهدت خطابه الأخير وهو يسلّم السلطة على شاشة التلفاز، شعرت بخلعه القناع وتسليمه لأحد الذئاب الجدد، قال "ارحمونى، قضيت عمرى بينكم، أخدمكم فى الحرب والسلام"، ذكَّرنا بأنّه الرئيس، فتذكَّر الناس ماضيه القذر، أىّ جبروت لهؤلاء البشر الذين يديرون السلطة، ويتحمّلون مسئولية البلاد؟! يغيرون الأقنعة بخفة دون أن يدرى أحد ألاعيبهم، أبدعوا فى اللصوصية ؛ ليغيروا ببراعة ساعة صفا إلى جحيم جهنم.

حوّلتُ التلفاز على قناة أخرى، شاهدت أحد الفنانين بالميدان، يخفى وجهه ويقول : "لا إحنا مش عايزينه يمشى.. حقك علينا يا ريس"، ثم يرفع القناع، ويقول : "بنضحك عليك يا "حسنى".. إحنا الكاميرا الخفية!!"

قمت للحمام تاركًا التليفزيون يصرخ معلنًا الأخبار الجديدة للجيش والشرطة والشعب، استحممت بالمياه الساخنة، فتساقط كلّ الكلام الذى تناثر على جسدى طوال النهار بالبلاّعة، أغمضت عينّى وقطرات المياه تخترق شعر رأسى، امتلأت بطاقة غريبة، وقلت بصوت مسموع : "العدل أساس الملك"، فجأة سمعت صوت "على الحجار" يغنّى من شقة جارى : "ليلى وياه.. ليلى ويا ليلى".

أغلقت الدش، لبست ملابسى كاملة، قررت أن أتفرج على فيلم أجنبى، لوقف الإزعاج الذى لوّثت به روحى دون جدوى خلال الأيام الماضية.

لم تفلح خُطَّتى بالخروج من الأحداث، لأنَّ الأجهزة شفَّرت القنوات، ولم يبق إلا الأخبار التى ترغب أن يتلقَّاها الناس، قررت فجأة الذهاب للميدان المملوء بالثوار.

دقت الساعة لتعلن الثانية عشرة ليبدأ حظر التجّوال، الخوف يسيطر على الأجواء، وجدت نفسى مملوءاَ بقوة غريبة، ناديت على تاكسى وقف بالقرب من المنزل، قلت له : "التحرير"، لم يتردّد، فاستغربت شجاعته.

فى الطريق تحّدث كثيراَ عن وقف الحال، وضرورة مغادرة الميدان والعودة للإنتاج، لم أهتمّ بحديثه، أدار المذياع على "إذاعة القرآن الكريم"، أنزلنى بنهاية شارع "شامبليون"، أحسست من بعيد بالنور المنطلق فوق رءوس القابعين على الجمر.

قابلنى أحد أصدقائى الشعراء، قال كلامًا لم أفهم معظمه، كان يتوسّط دائرةً من البشر المتنازعين، ومع ذلك كان يتحدَّث بطلاقة ودون توقف.

صرخ قائلاً : "المنتجون فى أرجاء البلاد يريدون الخلاص، الفلاحون فى حقولهم يرفعون الفؤوس للسماء منتظرين رى الأرض البور، فهل يأتى المطر؟ المصانع تحولت لخرابات، العمال

يلبسون الأفروال، يقفون مُتجّهمين مُتلحّفين بالقوة والصبر، يرفعون آلاتهم فى أيديهم، منتظرين بدء ساعة العمل للمكن الميت منذ سنين، فهل تعود الكهرباء؟!!

"الضحايا فى كلّ الشوارع، يطالبون بإعادتهم للمصّحات، لتناول العلاج والنوم فى الحدائق المفتوحة، لإعادة الأمان لقلوبهم".

تركت صديقى الشاعر، ودخلت لقلب الميدان، شاهدت الدكتور النفسى- الفاشل الذى ادّعى أننّى مجنون، وهو يصرخ بالمتظاهرين : "لا مناص عن رحيل الظالم".

رأيتها تتأبّط يد زوجها، هربت بعيونها بعيدًا حتى لا تتذكّر علاقتنا القديمة وأنا أمارس معها الجنس كآلة، لماذا انهارت أمام عينى؟ ألم تحتمل رؤيتى بالميدان لادّعائى الشرف على المقاهى ووسط الأصدقاء بأننّى ابن المنتفضين؟!

قالت فى الأيام الأخيرة بيننا : "إنّه يجب قتلى لإراحة العالم من شرى"، أصبت فجأة بكآبة غريبة، سرت وحيدًا أحاول الخروج من هذا الضجيج، وقلت بصوت مسموع : "لا أحد فى الدنيا يهتمّ بشىء سوى الفوضى".

حاولت فهم بعض الأغانى التى رددها أحد الثوار، شدَّنى بقوته، كان وجهه مشقوقًا، ويربط علمًا أسود على رأسه، قال صارخًا : "سيأتى يوم وينهار كل شىء، إنَّ غدًا لناظره قريب، لا تخيفنا مُجنزراتهم، ستجرى فولهم كالخرفان أمام الحشود المنتشرة، سيعلن الأبطال فى الأيام القريبة انتهاء الغدر، سيحرق الضحايا ملابس العبيد، لن يجثموا على صدورنا دهرًا جديدًا، لن نعود إلى منازلنا إلاّ برحيلهم للأبد"، صرخ : "ردَّدوا ورائى، يسقط الخونة"، كانت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا أدخل الانتعاش فى قلوب الجميع.

شاهدت لوحة غريبة مُعلّقة على باب أحد المحلات لشخص يحاولون قطع رقبته، الدم ينزف من كلّ جسمه صارخًا : "الحقونى"، انتابنى إحساس بأنَّ السلطات أحكمت القبضة الحديدية على الدنيا، بعد أن حوّلوا أرجاء المدن لمدافن.

سمعت أحد الرجال العجائز يخطب فى الجمع المحيط قائلاً : "أطلقَ الأكاذيب طوال العمر الفائت، وعدنا بتحقيق الرخاء، نمنا دهورًا ننتظر وعده الكاذب، حين استيقظنا نطالبهم بالقصاص، قالوا فى دعارة : "غادروا الميدان ؛ لأنَّكم لوثتم البلاد، ونشرتم الفوضى!!"

سأل الجمهور : "هل يمكن للقاتل أن يُعيد الدم والروح التى أزهقتها ذئابه؟!"

كانت الناس تنظر لبعضها ولا تجيب، ظل العجوز ينادى على الجمع ليُردَّدوا وراءه "يا بلدنا.. يا تكية.. يا وسية.. نهبوك الحرامية".

تركتهم مُتجهًا ناحية شارع القصر العينى ؛ لأتأكَّد من الإشاعات التى انتشرت بأنَّ السلطات ستُخلى الميدان بالقوة هذه الليلة.

كان النهار قد قارب على الطلوع، فقررت العودة للمنزل كى أستحمّ وأنام.

الانسحاب

الجو هادئ فى سماء المدينة، الدّبابات تحيط بمبنى الإذاعة والتليفزيون، الشباب المنتشرون يكتبون على صدروهم "نحن نبنى مصر"، يكنسون الشوارع، يدهنون أرضيات الأرصفة باللون الأسود والأبيض، يلبسون ملابس نظيفة، يتكلّمون بأدبٍ مع الناس، قال أحد المارة حين أحسّ بدهشته : "إنّهم ينظفون الميدان بمساعدة قوات الجيش الذى يوزع المياه المعدنية على الجماهير".

فرد الرجل مستاءً : "لا تقم بدهن الأرصفة الآن، الناس مازلت مجتمعة"، فقال الشاب بغل : "لا نأخذ أوامرنا منك"، لم ينظر ناحيته، وقال بأسى : "ناس باردة.. ناس وسخة"، لم يرد عليه لأنَّ الغدر كان بادياً فى عينيه.

قرر الجيش دخول الميدان من ناحية القصر العينى، فتح الطريق للسيارات لتمر، ووضع على زجاج كل سيارة ورقة مكتوبًا عليها "ادخلوها بسلامٍ آمنين".

بعض الشباب حاول منع دخول السيارات، تجمّع شباب آخرون من الملتحين ليساعدوا السيارات على المرور، جرى الثوار أمام مجمع التحرير محاولين غلق الشارع، صرخ للشباب : " اعملوا ساتراً"، جمعوا الحديد مرةً أخرى، سدّوا الطريق، لكنَّ السلطات والملتحين قرروا إخلاء الميدان، استطاعوا تكوين مجموعات خانعة صغيرة الحجم، دارت وسط الميدان وهتفت لإخلاء الميدان وتسليمه للجيش.

رددوا وهم يجرون وراء بعضهم: "الشعب يريد إخلاء الميدان"، حاول أحد الشباب منعهم من الهتاف انهالوا عليه بالسّباب، قال مُحذراً رئيسهم : "أنتم تقومون بعمل جريمة، هل تحتاجون دماً جديداً"، كان الجميع مُنشغلاً بتنظيف الأسفلت.

شاهد إحدى النساء التى خرجت ليلة الأمس على شاشة التلفاز تصرخ : "لن نترك الميدان"، لكنّها قالت ردّدوا ورائى : "الجيش والشعب إيد واحدة".

انسحبت المجموعات التى كونها خطباء الجمعة، وتركوا المنصّات دون قيادة، أمسكت إحدى البنات ميكرفوناً وقالت : "اسمى "نسمة"، عندى عشرون سنة، بنصح الشباب اللّى بيعاكسوا أخواتهنَّ البنات فى الشارع والأتوبيسات أن يتغيّروا مع الثورة".

صرخ أحد الشباب من ورائها : "خلّيها تقول رأيها، احترموا الرأى والرأى الآخر، محدش يقاطعها"، طلب آخر السكوت حتى تنتهى صلاة العشاء، فجّروا الفضاء الذى كان يجمع الناس المبتهجين بالعيد، ارتكبوا جريمتهم بتكسير الخيام، واعتقال بائعى اللبّ والبطاطا.

شاهدت بميدان "طلعت حرب" تجمّعًا ضخمًا يغنّى لأم الدنيا، كان بعض أنصار زعيم سياسى يقفون بالبلكونة، يردّدون الأغانى، رافعين أيديهم فى بهجة، مشيرين بعلامة النصر. صرخ مواطن بجوارى ببلاهة : "الجيش قرر إخلاء الميدان"، دخلت السيارات تخترق الجموع لتمر، كان الجميع يفسح الطريق ويهتفون بحبٍ وسعادة، رافعين الأعلام التى رفرفت على الجميع، فقدوا الذاكرة وارتضوا النتيجة "رحيل الرئيس وبقاء النظام".

القوة

أنت خارج الأحداث لا جدال، منظر الميدان المملوء بالبشر الباحثين عن أنفسهم يربكنى، كلَّما تقابلت مع أحدهم ذكّرنى بمآسى ارتكبها فى حقى، قلت لنفسى : "من يكـون ليفجّـر هـذا الغضب، ويجعل الجميع يتوحدون على قتله وضرورة مغادرته؟!"

دلّلت اللوحة المرسومة فى مدخل قصر النيل على الهرج المنتشر، الفوضى تدخل مـن كـلّ اتجاه، من كان يصدّق أن تخرج هذه الجموع تبحث عن السر.

قـابلتنى وسـلّمت عـلىّ بعينيهـا دون أن تـتكلّم، سـارت معـى وسـط الجنـود التـى تمـلأ الشوارع المحيطة، راقبت الناس التى تركب على الدبّابات التـى حـاصرت المتحـف ويلتقطـون مع الجنود الصور فى بلاهة!

تساءلت: "لماذا أحضروا الدبابات إلى قلـب الميـدان؟ " سـمعها أحـد المـارة، فقـال: "هـل تعرفين شيئًا عن الأحكام العرفية؟!" اندهشتُ من تدخُّله المتطفّل، وقلت : "لا فرق كبير بينها وبـين الطـوارئ"، قـال : "أنـت لا تعـرف الـدبّابات يمكنهـا أن تـدمّر المدينـة فى دقـائق"، ردّت بتلقائية : "نحن لا نخاف الموت"، صمت الرجل ونظر إلىّ برهبة، فاسـتكملت: "النـاس عرفـت الطريق، لن يعيدهم الخوف لبيوتهم"، قال دون أن ينطق : "من أنتم؟!" قالت : "نحن الصبايا المغدورين، لا نعرف السياسة، لكنّنا نعرف كيف نهدم الجدران!" تركنـا وسـار باتجـاه الميـدان يتحسّس الخوف.

دخلنا صينية الميدان التى نصب المنتفضين خيـامهم فيهـا ليبيتـوا ليلـتهم، كانـت البقعـة الصغيرة التى تتوسطه شبيهة بجرن بلدتنا أيام المولـد، مناقشـات صـغيرة يقودهـا متمرسـون، لتفريق الناس وإدخالهم فى دهاليز غريبة، يتركوهم وحدهم فى ظلمة الليل.

صرخ أحدهم قائلاً بصوت مسموع حين جاءت سيرة الجيش : "نقطة.. فلوستوب.. ومـن أول السطر"، لم أفهم ما تعنى كلمته، قالت : "إنّه الخط الأحمر الذى حدّده الساسة فى الحوار القومى "، كررها مرة أخرى، فرددتها بإعجاب، نقطة.. فلوستوب.

كانت بقعة الميدان المكتظ بالبائعين وضحايا الأنظمة يشعّ فرحة وانطلاقًـا، طلبنـا شـاى، جلسنا أمام خيمة أحد أصدقائنا استقبلنا قائلاً : "إنّه لن يغادر قبـل تغيـير النظـام"، التحقـت صديقة أخرى بنا، نظرت لرفيقتى فى غضب، وقالت لها : "ليلة الأمس ما كان يجب عليك ترك الفندق دون أن تقولى إنّك مغادرة".

لم ترد صديقتى، فصرخت البنـت الأخـرى فى وجهـى كمجنونـة، وقالـت : "يرضـيك الـلّى حصل امبارح، رتبت مع صديقتك المبيت فى فندق التحرير لأنه أمان، نـزلاؤه نـاس محترمـون، عرفتها على صاحب الفندق، مناضل عربى من اليسار القديم، زبائنه كلّهم من المخابرات، ليس

لهم علاقة بأحداث التحرير ؛ لأنّهم مسئولون عن الأمن القـومى للـبلاد، إنّهـا أعـمال السـيادة التى يجب أن نحافظ عليها، يرضيك صراخها وسط مناقشتنا بالفندق والقول فى وجه أصدقائى الضباط وهم ينصحونى : "إنهّم أعداء الثورة"، حينما عرِفتها عـلى كبـيرهم صرخـت فى وجهـى، وقالت مُغادرةً الفندق : "أنا مصرية مش يهودية"، أخذت صديقتى يدى دون أن تـردّ عليهـا، وذهبنا لنشرب الشاى بالقرب من باعة البطاطا والترمس.

اقترب منا شاب صغير، وقال : "يا باشا فيه نسـوان جُـوّا الخيـام بتعـاشر رجالـة، السـتات المحترمة لازم تمشى علشان متتشـبهش"، اقـترب منّـا بعـض الشـباب يتوسّـطهم رجـل عجـوز، وسألونا عن المنظّمين للبقعة، قالوا : "عندنا ملاحظات على أمن البقعة، الشباب المسؤول عـن الأسوار يبيع المخدرات والبرشام ويدخل البلطجية ليرهبوا المنتفضين ".

جرى عدد كبير من الشـباب خلـف صـبى يرفـع سـنجة بيديـه، فسـألت أحـد الجالسـين بجوارنا قال : "أمن الدولة فى الميدان يا باشا".

كانت نظرتها مرعبة وهى تبحث عن طريقة لتحرق بها نفسها وسط المنتفضين، أمنيتهـا الوحيدة لدفع الثمن أن تفجّر روحها وتشعل الحريـق فى قلبهـا، قالـت بقـوة ونحـن نواصـل السير بالبقعة : "ضُم يدى ولا تخشَ أحدًا".

يحيى

لم يعاشر امرأة خلاف زوجته، يعمل ليل نهار بالمصنع وبين العمال، لم يكن لديه وقت لأى شىء آخر سوى نيل المطالب، قاد الاضرابات وهتف كثيراً بسقوط النظام.

حينما نادى اليوم علىّ، أعادنى عشرين عامًا للوراء، كان وجهه شائخًا، تعجّبت، وسألت نفسى دون أن يلاحظ : "هل هذا المهندس الذى عرفته قويًا يتحدَّى الدنيا؟!" احتضننى وأخذنى من يدى، أجلسنى بجواره على المقهى، كان مازال مبتسمًا رغم الحزن الذى ملأ وجهه.

قلت له : "عامل إيه؟ ازيك يا "يحيى"!" قال : "الدنيا اتغيرت، وكبرنا خلاص"، قلت له : "فينك دلوقتي"، قال : "طلعت معاشًا مبكرًا، طول النهار بوسط البلد على القهاوى، لو عايزنى هتلاقينى دايمًا هنا". فجأة دخلت امرأة فى الخمسين من عمرها وشتمته بحبٍ وود، وجلست بجوارنا، عرفها علىّ، قالت: "تشرفنا".

حضر صديقنا المشترك من المصلحة المجاورة للمقهى، فتركنا "يحيى" بعد أن تأبّط يد المرأة، وقال : "ساعة وهنرجع.. انتظرانى"، قال صديقى : "حالته بقت صعبة بعد ما طلّق مراته، ثلاث سنين متبهدل آخر بهدلة، اتجوز عيلة مجنونة، وعاش معها بمدينة الشمس، بهدلته ومرمطت بكرامته الأرض، قعد سنتين بالشارع، وافقت مراته القديمة مؤخرًا لرجوعه إلى البيت بشرط ميتكّلمش مع العيال، أعطوا له نصف الصالة ليضع فيها ملابسه، علّقوا ستارة عريضة حتى لا يروا وجهه، مراته الأولى أصيلة، لو مرجعش البيت كان الكلاب لحسوه فى الشارع!"

لم يتأخّر "يحيى" علينا، جاء مع نفس المرأة، جلس بجوارنا، وقال : "أنا كبرت خلاص البركة فى الشباب، بنتى "صفاء" امبارح قالتلى "يا بابا أنا هروح ميدان التحرير"، لم أرد عليها، أخذت قرارها من نفسها ونزلت، ومن حظّها الأسود أن يأتى المجرمون ليلة الأمس ليخلوا الميدان، لكنَّ الشباب قاوم، اتصلت بى، وقالت "لا تخف علينا سوف ننتصر"، ظللت ليلة الأمس مرعوباً، حتى طلع النهار، ذهبت إليها، كانت يدها مجروحة، عالجوها بمستشفى الميدان، قلت لها : "أمك هتزعل علشانك"، طلبت منّى المبيت وحدى بالبيت، والاستمتاع بكل الحجرات"، وقالت : "ماما وأخواتى هيباتوا معايا النهاردة"، قلت بحبّ لأوكّد حكايته : "البركة فى الشباب"، ردَّ بقوة : "استطاعت أن تعيدنى لأيام المجد بنت الكلب!"

طلبت المرأة التى يتأبط يدها الطاولة من القهوجى، جلسا بجوارنا يلعبان، ويتشاجران بدلال، هممت بالرحيل، فاحتضننى بودّ وابتسامته البريئة لم تفارق عينيه، قال لصديقنا المشترك : "ستأتى لزيارتى، أنا لا أفارق المقهى".

تامر

كيف تصور أن يمر العمر دون أن ترمقه العيون والقلوب التى تأذّت منه؟! تـرك جروحًـا يستحيل تضميدها بسبب عناده، كان يتصور أنَّ المبيـت مـع المتظـاهرين فى الميـدان سـيَطهِّر روحه ليغفروا له.

حين شاهدته العاملة بمكتبه التى طردهـا منـذ سـنين، قالـت بشـماتة : "الثـورة طلعـت بالعند فيك"، قال : "لا وقت للتشفِّى يا "رضا" المهم أن يواجه الجميع الظلـم"، كانـت ترغـب أن تقول له : "لماذا حضرت؟ لن يطهِّر روحك النجسة وجودك بيننا!"

عندما رآه صديقه على المقهى ذكَّره بقوله فى يومٍ مـا : "مكتبـى لـيس شـئونًا اجتماعيـة، ليس لك مكان عندى"، طرده رغم أنَّ البوليس كان يطارده بسبب أفكاره المتطرفة.

أخذه بحضنه مبتهجًا، وقال لابنه الذى كان يجلس بجواره على المقهـى : "اوعَ تطلـع زى أبوك يا "تامر"!" ابنى "سيف"، قال لى : "يا بابا مش ممكن أخون الميدان، والناس أبدًا".

ترك صديقه وأخذ ابنه وسارا بالشوارع، حاول دخول الميدان من شارع "طلعـت حـرب"، قابل أحد معارفه من الصحافيين، قال بشهامة : "أنت طلعـت يـا أبـو "تـامر" بعـد مـا الثـورة خلصت!!"

قال لنفسه : "لا يهمّك انطباعاتهم، أنت تريد العـودة لنفسـك وأهلـك وتتطهّـر، لا يهـم رأيهم جميعًا".

كانت الطائرات فوق الميدان تُنذر بالخوف، المحتجون رفعوا أصـوات صراخهـم، اقتربـت الطائراتِ بجبروت من أسقف المنازل، رفع المتظاهرون نـبرة هتـافهم، ألقـت الطـائرات أوراقًـا عليهم ليَخلوا الميدان، وينهوا الفوضى حتى يعود الأمن والنظام للبلاد.

اكتشف فجأة وجود ابنه الذى قال بحزن: "عـايز أروّح يـا بابـا"، رد مبتسـمًا : "لا يهمّـك أحد، يوجد بشر كثيرون قدمت لهم الخير سوف نقابلهم اليوم"، فردّ عليه بقسوة: " بابا عـايز أنام"، صرخ أحد الخطباء بجوارها : "الدم لا يمكن تعويضه إلاّ بـدم، لـن نـترك الـبلاد للـذئاب الغادرين يرتعون فيها مرةً ثانية".

ظهر أحد المحتجين بطبنجته المرفوعة للسماء بشاشة كبـيرة مُعلّقـة عـلى جانـب المقهـى قائلاً لخصومه : "سنشرب من دمائكم، ستهرس أصابعنا أعينكم، سنأخذ روحكـم، لـن يسـتمر نظامكم، سنبنى بلادنا".

نظر ابنه بغيظ ناحيته، وقال : "بابا أنا هروح، لو عايز تقعد براحتك"، أنقذه أخوه من إلحاح ابنه الذى اندهش لرؤيته، أخذه بحضنه، وقال : "لم أتوقَّع أبدًا أن أراك هنا"، احتضن ابنه بحب، وقال : "أنت رجل المستقبل يا "تامر"، هذه أيامكم يا بطل".

صرخ أحد الزعماء من على المنصّات الكثيرة قائلاً : "إننّا نعيد تشكيل الوطن، إننّا نصنع الخلطة السرية لتجاوز الأزمة، يجب وقف الذل والمهانة"، استأذنهم وقال لأخوه : "لازم نشوفك"، فرد أخوه : "على فين؟!" فقال : "هنروح بقى".

ركبا التاكسى مُتجهين للمنزل، لم يحدثه ابنه طوال الطريق، كان يعتقد أنه سيأخذه ليشاهد بنفسه ماضى أبيه الطيب، وأصدقاءه الذين يحبونه، دخل ابنه حجرته وتركه بالصالة، نادى عليه ليأكل، فردَّ بغضب : "أنا هنام يا بابا، تصبح على خير".

فتح التلفاز يتابع الأخبار، قال المذيع : "لا بديل أمامه سوى الرحيل، لن يغفر له الضحايا أبدًا، لا بديل إلا بدخول الخير قلوب الأبرياء الذين اغتالتهم يد الإجرام، وتطهير قلوبهم من الغل الذى زرعه".

قال لنفسه : "لماذا لا يرحل؟ كيف تحمّل كل هذه الإهانات ومازال يصرّ على البقاء؟ لماذا تشبّث بالكرسى؟! لماذا لم يأخذ أولاده، ويهرب ويعيش بأىّ بلد آخر؟!"

فى الصباح قرر أن يذهب للميدان بمفرده، ليقدَّم لأصدقائه الاعتذار كى يغفروا جبروته وظلمه، لكنَّ اللّصوص تحت المنزل قتلوا ابن جاره أثناء ذهابه للجامعة، واستولوا على سيارته.

تراجع عن قراره وصعد لشقته، أسرع على السلم ليمنع ابنه من النزول للمدرسة، قال "تامر" بغضب : "هنزل يا بابا، لن أفكَّر أبدًا بطريقتك"، كان يريد أن يقول له بأسى : "حالك يصعب على الكافر".

الفراق

شاهدتها تتأبط يديه، لم تندهش واقتربت منى وسألتنى : "عامل إيه؟!" قلت : "كويس"، أحسست بأنَّ بنطلونى امتلأ ببولى، استكملت بجرأة : "هذا صديقى"، وأشارت ناحيتى ضاحكة، وقالت : "كان صديقى"، أجاب باندهاش : "أهلاً وسهلاً".

فى نهاية اليوم بعد أن انتبح صوتها بسقوط النظام، ستذهب معه لينام بحضنها، ويقول لها فى رقة : "يا أجمل عيون الدنيا"، هدمنى الإحساس بغدرها، قالت "سارة " القاسية وهى تودّعنى بعد مشهدِ لم يتعدَّ ثوانٍ : "عايز حاجة؟!" قلت : "شكرًا".

كانت تلبس البذلة الزرقاء والكوفية الحمراء، والنظارة الشمس العريضة ملأت وجهها، ظهرت كأنها عروس الميدان المكتظ بالناس، كنت أراهن على أنّنى رجلها الأول، حين خالفت ميعادها الأخير ولم تأت، وأغلقت سماعة التليفون فى وجهى، عرفت أنَّها انتقلت لحضن صديقها.

كيف استطاعت أن تجعلنى عبدها طوال العمر الفائت؟ كيف استطاعت أن تمرَّ على جثتى لتصل إلى قلبه؟ لم تنتظر عودتى آخر الليل بعد تعب العمر للمبيت معها بمنزلٍ صغير على شاطئ البحر نستمتع بالبراح.

كم يوم وشهر وسنة وعمر بأكمله تمرمغت أمام بابك يا سيدة الملائكة، وفى اليوم الأخير رفضتِ انصياعى ولم تقبلى ثمن عودتى، كم مرة حاولت أن أثنيك عن عنادك لتؤمنى بى، لكنَّك بإباء رَفضت أن تركعى، وقلت : "لن أكون عاهرتك أيها المجرم".

كم مرة حاولت أن أجعلك أميرة للكل، لكنَّك رفضتى أن تنحنى لشموخ الآلهة، وقلتى : "لن أتودّد لرقتك.. لن أنتظرك"، تركتنى وتأبطت َيد حبيبها فى جبروتِ وقسوة لم أعهدها منها.

كانت ترغب أن يكون مشهد الميدان الأخير مفجعًا، حين همّت بمغادرتى، نظرت ناحية شعرها الأسود المفرود، لم تهتم بأمرى، لم تنظر ناحيتى، تأكدت أنّها عرفت طريقها.

ذهبت كالملكة بخطواتها الواثقة لتعلن فقدى للأبد، أذهلتنى قوتها، وهى تحدد نفس المكان الذى شاهد أول لقاء بيننا ؛ لتعلن إنهاء علاقتنا، واحتضان حبيبها الجديد، توجهت روحه ناحيتى، وقال بزهوٍ أحرق قلبى : "إيّاك أن تؤذيها مرة أخرى".

لم أكن أصدق أنَّ "سارة" التى كانت بين أحضانى فى الليلة الماضية يدافع عنها شخص غيرى، رمقنى صديقها بغدرٍ لم يتصوّره عقل، شبَك يديه فى يديها، واختفيا، صرخت وحدى : "يا "سارة" يا عروس البحور، كيف طاوعك قلبك على خلع جذورى من روحى؟! لم يعد لذكرى

أحضانى وقبلاتى أثر، كيف تمكَّنتِ من هزيمة كبريـائى؟! أىّ قـوة امتلأتنـى وأنـتِ تقـولى وسـط الميدان : "ارحل، لم يعد لك مكان بقلبى؟!"

تركتنى أستدعى المرارة، سرت بكل الشوارع والمقاهى التى عشنا فيها، تذكرت المـاضى الأليم الذى جعلنى أخسر زوجتى وأصدقائى من أجلها، ومع ذلك خسرتها فى النهاية، هل هـى السبب؟ أم أنّ قسوتى وغدرى جعلتنى أخسر كل شىء.

"آه يا "سارة " يا عسلية العيون يا مجدلية يا بتول، عشت متشوقًا حبك الملائكى، فى اليومِ الأخير وسط الميدان صرختى بعلو الصـوت : "ارحـل دون رجعـة"، كـان الجميـع شـاهدًا عـلى وعليكِ، لم يتعاطف معى أحد، الجميع تعاطفوا معكِ، رغم أنَّى أعطيتكِ عمرى كلَّـه، لتدهسى روحى باللقاء الأخير.

كنت أمرّ أمام الأبواب الموصدة والحقول الواسعة، أجـدك هنـاك تفترشـين الأرض، تملئـين الأكواب والأطباق بالطعام، تطعمين الفقراء من حولك، وأنا أهيم مغرمًا بقلبك العاصى.

اليوم يهرب الربيع من حولى، وأنتِ تصرخين بهدوء وجرأة، فاقت تصـورى عـلى التخيـل، وقلتِ بعلو الصوت وسط الجموع : "ارحل لم يعد بقلبى مكان لرائحتك".

الدَّخلة

عاد من الميدان مسرعًا، بعد إعلان التلفاز هروب المساجين من الأسوار، واحتلالهم الأحياء وقتل الأبرياء، عاد سريعًا ليطمئنَّ على أولاده، اتصلت أخته وقالت : "ينفع تنسى دخلة ابنتى؟!!" قال لها : "إنّ الوضع بالشوارع سيء، والكلاب منطلقة الآن ؛ لتغتال براءة النَّاس، طلب منها تأجيل الفرح"، قالت : "بنتى فى الكوافير من الصبح، عريسها راح عشان يجيبها"، قال : "الشوارع غير آمنة إزاى هتروح لبيتها؟!!" قالت : "أنا هطلع على الكوافير وهزّفها، لو فضيت يا خويا ابقى عدَّى علينا".

كانت الطرق مرعبة، أخفوا الباصات العمومية خوفًا من الحرق، ركب الميكروباص متوجهًا لمنزله، كانت عيون الركاب مذهولة كأنَّها فى حُلم، الرصاص ينطلق من حولهم، وهم يخرجون من شارع الكورنيش إلى شارع الجيش الذى يتوسّط الحى.

وجوه الشباب تنزف الرعب خلف زجاج السيارات، يمسكون السنج والسكاكين والطبنجات، وينظرون فى وجوه الركاب، حاول أن يدخل فى نفسه مُتذكرًا بنت أخته التى تقف أمام الكوافير تنتظر خالها ليزفَّها إلى زوجها ؛ بعد طلاق أمّها منذ زمنٍ بعيد وبات بمثابة أبوها، إلا أنَّه تركها ليلة دخلتها، وذهب لمنزله يطمئنّ على أولاده.

فتح باب الشقة مسرعًا وجد زوجته وأطفاله يلتفّون حول التلفاز، ويديرون القنوات للتعّرف على مصيرهم، لم يرد أحد سلامه أو يهتم بوجوده، لن يستطيع فرض أوامره اليوم أو إجبارهم على مذاكرة دورسهم، أو تنظيف البيت، كان هناك شىء أهم بالنسبة لهم بعد تهديد الحكومة بإلغاء الدراسة إن لم تتوقف الفوضى.

دخل حجرته مُحاولاً تذكّر فستان الزفاف التى ترتديه بنت أخته، لكن منظر الميدان والمنتفضين أعاد النور لقلبه وهم يردَّدون الأغانى لتنظيف البلاد، ردّدت البنات الهتافات والأغانى، لتنتفض أرواح العباد حولهم.

تركهم هناك وعاد خوفًا من اقتحام البلطجية لبيته، وقتل أولاده، كانت نبرة صوته حزينة وهو ينادى على ابنه، ليحضر له الفوطة بعد دخوله الحمّام لينسىـ أحداث اليوم الطويل.

سأل نفسه : "لماذا تركت الميدان والأغانى وأحلام الصبايا تغتالها بنادق الخونة؟!" كان سعيدًا لأنّه شارك مع المنتفضين بقذف الشرطة بالطوب، صرخ ابنه من الصالة: "عمّتى اتصلت، وبتقلك "مى" دخلت، ووصلت لبيت عريسها سليمة"، خرج من الحمام عاريًا دون أن يرتدى ملابسه، ورفع سماعة التليفون اطمأنّ على أخته، قالت : "إنَّ الشوارع تمتلىء بالمجرمين واللصوص، لكنها عادت لشقتها بعد اطئنانها على ابنتها ووصولها إلى بيت زوجها بالحى المجاور"، قال: "لا تخرجى من المنزل حتى الصباح، أغلقى على نفسك جيدًا".

رن جرس التليفون مرة أخرى، كانت أخته التى تعيش فى بلدة بعيدة تطمئن عليه، سألها على أولادها، قالت : "أنا زعلانة على حال البلد، الشباب كلّهم ولادنا"، بكت فى التليفون، وقالت : "يا ربّ تعدَّى على خير".

تذكّر فجأة وجهها وهى تأكل عنده الرنجة فى شم النسيم، وضعت نصف السمكة فى فمها، فتدلّى جلد الرنجة من فمها كأنها آكلة لحوم البشر. أحسّ يومها أنَّ روحها تمتلىء بالشر، خاصة حين صرخت زوجته فى ابنه ليذهب للنوم.

ظلَّ التليفون يرن، لم يرد عليه أحد سواه، الجميع كان منشغلاً بالأحداث التى تبثّها قنوات التلفاز، كانت زوجته تصرخ لتسبّ المتحدثين، وتقول ببلاهة : "كفاية ظلم يا كفرة"، دخل الحمّام مرة ثانية، ودون أن يتبوّل خرج مسرعًا للشارع يبحث عن شىء خلاف الفوضى، كان المقهى المقابل للمنزل مملوءًا عن آخرة، يتابع الناس بصراخ المناقشات لدرجة أذهلته، أحسّ وقتها بهزيمة داخلية ؛ لأنَّ فريقًا كبيرًا منهم دعى لقتل المتظاهرين بالميدان، وعودة الاستقرار.

كان قلة من الناس يقولون إنَّ الحقيقة تاهت، أثارت التعليقات المثيرة غيظه، فجأة صرخ صاحب المقهى فى أحد الزبائن مُعنفًا قيامه بتقطيع صورة الرئيس، لكنَّ الشاب قال ببراءة : "أنا خفت يا معلم لحسن الشباب فى المظاهرة يحرقوا القهوة، خاصة أنَّهم كانوا يهتفون برحيله ومحاكمته"، لم يتمكّن من الرد ؛ ليدافع عن أبناء الميدان الأبرار، ما الذى أضعفه تلك الليلة؟!

قام من على المقهى مُقررًا العودة للميدان، لم يعد يتذكّر خوفه على أبنائه، لم يتصل بهم ليبلغهم بمبيته خارج المنزل، كان يعلم أنّهم مشغولون بالأحداث التى تبثّها القنوات الفضائية.

حين قابل أول لجنة شعبية، سألته الوجوه المرعبة فى صمت : "أنت مين؟" قال كلمة السر بوضوحٍ ليمر : "مساء الفل".

العودة

لم يعد للنوم مكان فى حياته، الأحداث كثيرة ومتلاحقة، لا يستطيع متابعتها، الميدان يمتلئ بالبشر، والمخربون يعبثون بالأحياء، قوات الشرطة اختفت من الشوارع، وتركت البلطجية وسط الجمهور الصامت ليقرر المصير.

الأحداث المتلاحقة تتسارع كل ثوانٍ فى رأسه، لا يدرى ماذا يفعل، كلّما جلس على مقهى أحسّ بضرورة الاتصال بأصدقائه ليطمئنَّ عليهم، كلَّما ذهب للمنزل أخذته قدمه للنزول للمقهى، يتحسّس الخوف من المجهول كلّما نزل بالميدان.

الجرائد تكتب كل يومٍ كلامًا غريبًا عن الثوار والتغيير، ماذا حدث فى هذه البلاد؟ هل ستؤثر تلك الأحداث على عمله، وعلاقته بزوجته وأولاده؟ قال لنفسه : هل ستتغير الدنيا كما يقولون؟ لا وقت للتفكير والتأمل، أنت دائمًا تتلقّى أخبارًا جديدة، وعليك أن تُحلّلها مع آخرين، أو مع نفسك، وتربطها بالماضى والمستقبل.

أنت فى سباقٍ مستمر، لا أحد يعلم نهايته، لم يعد اليوم كالماضى يُحسب بوقت العمل والنوم، أبدعت هذه الأيام طرقًا جديدة لاحتساب الوقت، أغلقت السلطات أبواب العمل والمدارس، فانتشرت الحكايات حول الحريق.

تذكّر فجأة أصوات أحذية الثوار وسط الميدان، لوقف إطلاق الرصاص على صدورهم، لم يكن يصدَّق أنَّ دبابيب أحذيتهم ينقل الرعب للضباط، نظروا لبعضهم ولقمر السماء، تأكدوا أنَّ الثوار سيأكلون قلوبهم، تراجعوا لشارع التحرير مُهرولين مفزوعين.

كان يقف بعيدًا حين سمع دبابيب المنتفضين، أحسّ بالقوة، دبدب بحذائه، سمع صوتًا منتظمًا.. دب.. دب، عرف أنَّ لقاء القلوب يفجع الصخر.

فى هذه الليلة سار بالقرب من شارع "الشواربى" محاولاً الوصول لمنزله، شاهد مئات المخبرين السريين يمسكون الشماريخ، ويطاردون الناس فى الشارع، يلكمون وجهه بالسّباب المتكرر، يكسرون واجهات المحلات الزجاجية، ولم يستطع أحد الوقوف ضد بطشهم.

طالت شماريخ أمناء الشرطة والضباط الذين ارتدوا الملابس المدنية لنشر الرعب بعض العجائز، تجاهلها وجرى بمدخل إحدى البنايات، وصعد مُهرولاً سلالمها، نادته امرأة عجوز ليدخل عندها، حين أغلقت باب الشقة فوجئ بمئات الهاربين من الشوارع المحيطة بالميدان يختبؤون، قالت لتُهدّئ روعه : "لا تخف أنت فى أمان".

حينما نزل من شقتها فى الصباح وخرج للشارع، شعر بأنه سقط من الفضاء على شوارع الحى، اكتشف الفكهانى والمكوجى، والفوال، والقهوجى وجوده حين قالوا له : "إزيك يا أستاذ؟!"

لم يتصوّر خلال الأيام الماضية أن يعود ويمشى فاردًا ضلوعه، ويتعرف على الباعة والجيران، يتذكّرون اسمه وهم يُلقون التحية، عاش أحداثًا كثيرة خلال هذا الصباح، سمع حكايات غريبة، شاهد وقائع لا يمكن أبدًا أن ينساها، شارك فى إطلاق مشاعر الحب والأمل، لم يكن يتصوّر أن يعود ساقطًا من الفضاء الرهيب لوسط الحى، ليجدهم كما تركهم يحلُمون بالرزق والستر.

قال لنفسه : "أنت عدت"، الجميع مشغول باليقظة من الأحلام، نادى بائع البرتقال "العشرة بقرش يا نايمين"، أخذ الكيس المملوءاَ بالفاكهة، وصعد درجات السلالم ليدخل شقته لممارسة عادته القديمة.

طاقة الحبّ

لم أقضِ ليلة فى حياتى خلال الخمسين عامًا الماضية شبيهة بهذه الليلة، قام مرشدنا بتعبيد طريق النجاة، سلب روحى من جسدى، أخذها فى مياه البحور البعيدة، دفّأها وأبهجها، ارتفعت فى السماء بعيدة عن جسدى، انتعشت وغردت مع العصافير التى ملأت السماء.

حين انتهى من تدريبه الأخير، تيقنت بأنّنى أصبحت شخصًا آخر.

هذه العبقرية التى تملأ قلب مرشد جماعتنا، فيعيد بناء أروحنا من جديد، الحبّ أضاء قلوبنا، قلع الطمع والخوف والحزن والذل والقهم بالبحور البعيدة، أخذنا إلى جنة الخلد، ملأنا بالعدل والأمل، قال فى نهاية الجلسة حين تحسّس رأسى : "اذهب أنت حر".

لم أتمكَّن من النوم يومها ؛ ملأ النور عينىّ وقلبى. لكن حين سألت نفسى : "أيمكن غفران الخيانة؟!" شعرت بالظلام، وقررت النزول للشارع، كل شىء يمكن تعويضه إلا طَعْنك من الخلف، وأنت تعتقد أنَّ دوره هو حماية ظهرك.

لم أدرِ لماذا جاءنى أبى، وهو يتوسّطنا فى أيامه الأخيرة، يقسم ما يملكه بعدل الله؟! قلنا له : "لا تفعل ذلك يا أبانا"، كان يصر على التقسيم، حين خرجنا من حجرته لم يكن أحد فينا راضيًا بنصيبه، استمرت خلافاتنا بعد وفاته على تركته التى خرج بها من الدنيا، لأنّنا جميعًا آمنا بأنه لم يراعِ العدل.

هذه الليلة اكتشفت الحل العبقرى لخلافاتى ورأب الصدع، سأذهب إليهم غدًا أطلب منهم أن يُوزِّعوا نصيبى بالعدل، وقتها سيأخذون أكثر مما طلبوا، ويعيدوا إنتاج الحبّ مرة أخرى بينهم وبينى.

كلّ شىء يمكن احتسابه، يمكن تعويضه بطرقٍ مختلفة، لأنّنا نقوم باقتسام ذكرياتنا المشتركة، كلّنا خاطرنا بعمرنا لننال هذا الماضى، لم يعد يهمّ فى النهاية دور كلّ واحد فينا فى بناء هذا العالم الخفى الذى ظلَّل حياتنا، من حقنا نيل العدل ؛ لتعويض من تسّببتَ شرورنا فى تقليل رزقه، نحن جميعًا مسؤولون عن النتائج، يجب أن يأخذ المحرومون حقهم لأنّنا سرقنا أرواحهم، يجب إعادتها بدفع ثمنٍ أكبر من العدل، شىء واحد لا يمكن تعويضه، مشاعر البهجة المسروقة، هل يمكن أن يساوى مال الدنيا دقيقة واحدة للامتنان؟ إنّه أغلى شىء يملكه الإنسان، الحب لا يمكن تعويضه أبدًا.

لا يمكن أن تعيش الباقى من العمر راضيًا، وأن تحس بحرقة وقسوة الأيام ؛ لأن من تحبّه لا يُقدِّر ما تعطيه، تشاهد عينيك رفضه لقلبك، فتتساءل: "كيف يمكن إبداع طرقٍ مُبتكرة للبراءة والبكارة ؛ لنيل رضا من ضحّوا من أجلنا؟! "

قال مرشدى فى يومٍ ما حين سـألته هـذه الأسـئلة : "يجـب أن نغفـر لأنفسـنا، وللآخـرين مادمنا على استعداد لدفع الثمن"، قلت : "لكن المشاعر الطيبة لا يمكن تعويضها ؛ لأنَّ طعنـة من تحبه تترك أثرها فى جبهتك كعلامة على الغـدر"، رد بثقـة : "يمكنـك تعويضـها بمزيـد مـن الحبّ والإيمان".

الخيانة هى العائق الوحيد، كلّ شىء يمكن تقدير ثمنه، الطمع، الجشـع، النهـب، الفجـر، الغدر، السرقة، التوحش، لكنَّ الخيانة لا يغفرها إلا الموت، يجب أن تدفع حياتك ثمنًـا لإعـادة نمو المشاعر البريئة.

لم أخنهم، ولم أحقد على أحد فيهم، كنت أعاقب نفسى حين تأتى صورة أحدهم فى ذهنى مُتشنِّجًا مطالبًا بحقِّه، كنت أبذل مجهودًا ضخمًا ؛ لأُخلِّص مشاعرى من الطمع والغل.

أقف اليوم على أعتاب مرحلة جديدة، يجب كنس كلّ الطرق حتى تصـفو روحـى، كـان مرشدى يقول وهو يطالب روحى بالتطهّر: "نحن ننجح لأننـا مؤمنـون، إنّ جـزءاً مـن حريتنـا متوقّف على قدرتنا على العطـاء، يمكـن تعـويض كـل شىء باسـتبدال الشرـ بـالخير، إنَّ القـيم النبيلة حين تنتشر فى أرواحنا سوف تزيل كلّ الطاقات الشررية مـن أرواحنـا، وتلقيهـا بـالبحر الكبير المالح المحيط بعمق الأرض".

أحسست بارتياحٍ حين تذكّرت حكاياته ووصاياه فى اجتماعـه الأخـير، حمـدت اللـه عـلى التحاقى بهذه الجماعة التى خلّصتنى من الماضى الكئيب، كان نور الفجر قد حلّ، وأنـا لازلـت جالسًا على حافة النهر، أحاول الإجابـة عـن السـؤال المحـير، ولا أدرى كيـف اسـتعدت دروس المرشد بعد حياتى خمسين عامًا جاهلاً مصيرى، قال بثقة فى نهاية الدرس الأخير : "اذهب أنـت حر"، إذن لماذا هربت ذكريات أصدقائى التى اعتقدت أننّى أسأت إليهم، وغادرتنى للأبد.

كان النهار قد اقترب والشمس تطلق شعاعها الفتّان، وقفت على الشـاطئ، فـردت يـدى للسماء لأستحضر النور من أرجاء الدنيا لأغسل وجهى وقلبى، قلت لنفسى : "كـل شىء يجـب تعويضه"، جمعت يدى المفتوحة كلَّ الشرـور بعـد أن دارت روحـى عـلى أرجـاء بـلاد الـدنيا، وجمعت الغلّ من الشوارع والحقول والأحياء، قلعته بقوة، ورفعتها على اكفّ يدى المجروحة، وطرت فوق مياه المحيط، وألقيته بقـوة بعيـدًا عـن الشـواطئ، زال السـواد بالميـاه، شـاهدت بنفسى انهيار الشر وسط ذرات المياه المتفجّرة، ظللت هناك حتى عادت مياه البحر زرقاء كما كانت، نزلت واستحممت فيها، وقفت على سطح المياه، واستحضرت كـلّ الخـير والحـبّ مـن الشجر والنور والصبح، وضحكات البنات ورضا الزاهـدين، وضـعتهم بـين ذارعـى المفتـوحتين، رفعت رأسى للسماء وطرت فوق الدنيا ؛ لألقى الحبّ على البشرـ، لم أتـرك شـارعًا أو حقـلاً إلا وغسلت روحه بنور السماء.

ظهر النهارِ حولى، واندهش أحد الصّيادين من وقفتى الطويلة صامتًا مفتوح الذارعين، ووجهى مناجيًا السماء، فسألنى: " عايز حاجة يا أستاذ ؟" بادلته البهجة، وقلت : "عايز سلامتك".

الرئيس الأسمر

أثناء حديث رئيس الحكومة الجديد ردًا على سؤال أحد الصحافيين، قال : "لازم الناس تستحمل شوية، فيه شعوب بأفريقيا بتعيش فى النهب والسرقة والخوف دهوراً، الناس لازم تستعد للأزمة"، أدرت المحطة لأفاجأ بتعليق آخر قاله رئيس الإمبراطورية، وهو يعلّق على أحداث الانتفاضة داعيًا الله قائلاً: "إنّ هذه المنطقة ستمر بأيامٍ صعبة.. يارب هوّن".

قلت لنفسى : "ماذا يُخطّطون لبلادنا؟ كم عدد الضحايا وحجم الانهيارات التى سينفّذوها لنشر الرعب؟!" غيّرت القنوات وجدت الرؤساء الأوروبيين يُعاودون التعليق على الأحداث مُردّدين نفس نغمة التخويف، قلت لنفسى : "لماذا كُتب علينا أن نبقى فى الظلام؟ لماذا يتكاتف علينا رؤساء العصابات؟!!"

ردَّ أحد المعلّقين بالقناة الفضائية على تساؤلاتى، صارخًا بضرورة تدخل المؤسّسات الدولية لحماية الثوّار، وإنزال العقاب بالفاسدين.

صرخ ابنى من حجرته لأطفئ التليفزيون لأنَّ عنده امتحان بكرة، استسلمت لطلبه وعمّ الصمت الشقة، دخلت المطبخ، وصرخت زوجتى وهى نائمة : "البطاطس فى الثلاجة، خلّى شوية لسندوتشات الصبح"، خلال إعدادى لوجبة العشاء كنتُ أرى الغل فى عين الرئيس الأمريكي وهو يبلّغنا بالأيام السوداء، كما أنّنى شاهدت الشماتة ترتع بعيون رئيس الحكومة الذى عينه المخلوع ؛ ليدير شئون التكية.

تذكّرت جملة لصديقٍ يعمل بإحدى السفارات قابلته اليوم فقال: "الأمريكان قرّروا أن يرحل الرئيس اليوم حتى لا تعمّ الفوضى"، حين لم يفهم مبعوث الرئيس، هاتفوه بالتليفون، وقالوا له : "سنقتلك.. انفذ بجلدك، مصالحنا فى خطر"، فهم الرئيس الرسالة، وقرّر الرحيل".

لم يكن يتوقّع حسب صديقى أنّ أصوات وهتافات الرّعاع يمكن أن تؤدّى لهز أركان نظامه، عين رئيسًا جديدًا للحكومة، وقرر الرحيل فى غضون أيام، قال صديقى بدهشة خلبت عقلى : شاهدت السفير وهو يُحذّر أحد الضباط المبعوثين للرئيس، ويقول له : "أمامكم يوم واحد فقط لإعادة توازنكم على الكرسى، وإلاّ تدخلنا مباشرة وأحضرنا ممثلاً غيركم لتسير شئوننا"، وأنهى حديثه وسط صمت المبعوث قائلاً بغضب : "إنَّ الشعب الأمريكى يرغب أن ينتهى هذا المشهد الهزلى الآن"، فسأله الضابط المبعوث مذهولاً : "الآن؟!" فقال بصلافة : "الآن يعنى الآن".

قلت لنفسى : "ماذا يمكن أن يفعلوا فينا أكثر من ذلك؟!" ملأت بطنى بالبطاطس المهروسة بالثوم، وقررت النوم على أرضية الصالة دون غطاء.

الميدان

عزمت على الرحيل حتى تهدأ الشوارع الممتلئة بملايين البشر. قال زميلى بالعمل : "الحكومة أعطتنا أجازة، ولن نعود قبل عودة الاستقرار".

جمعت زوجتى كلّ الحقائب من تحت الأسرّة كأننا سنغادر للأبد، وضعتها على ظهر التاكسى الذى اتفقت معه بالأمس، لينقلنا لنعيش بين الأهل حتى تمر الغمة التى أصيبت بها المدينة.

رفضت زوجتى إحضار دراجة ابنى الصغير، لطخته على وجهه بالكفّ، وصرخت بوجهه : "إحنا فى إيه ولاّ إيه يابن المرة!"

أعاد منظر الحقول المترامية ذكرياتى وحسرتى على عمرى الضائع فى المزيد من العمل، والإخلاص للبيت والأبناء والزوجة، لم أتوانَ يومًا عن تأدية الواجب، مع ذلك لم أنعم بحقّى.

تخصصت زوجتى فى إهانة الأولاد وإعطائهم الأوامر ؛ كى يخرسوا، ظل السائق مُنشغلاً بالطريق حتى وصل لمنزلنا الذى بنيته فى البلدة منذ عشر سنين ؛ للحفاظ على نصيبى الشرعى فى تركة والدى، استقبلنا أخى وأولاده، وقالوا : "ريّحوا عندنا شوية واتغدوا، البيت مش هيطير".

كانت نظرة واحدة منها كفيلة بأن أقول لأخى : "سيبونا النهاردة على راحتنا، بكرة هنتغدّى معكم"، أدخلت الكراكيب التى عبأتها فى الحقائب بالمنزل، وظلّت تصرخ بوجهى حتى وضعت كل شىء فى مكانه، كنتُ مشغولاً بتشغيل التلفز لمتابعة الأخبار، حين انتهيت من كل الأعمال، احتضنت أولادى الثلاثة ونامت، كان الليل قد دخل، فقررت زيارة الأهل.

أذهلتنى التعليقات الغريبة للجميع، دفعتنى لأن أدلى برأيى رغم عدم إلمامى بالأحداث، اعتقدوا أنَّ ابن قريتهم الذى يعيش بالمدينة عليم بالأمور، كنت عند حسن ظنّهم ؛ لأننى ببساطة أكّدت ما يقولون، أكّدوا على علمى بالخبايا والأسرار.

قابلنى على المقهى عجوز قريتنا، قال : "ألف مبروك على العودة"، واستكمل حديثه مُتسائلاً دون توقف : " ما هى مساحة ميدان التحرير يا "حسن" أفندى ؟! هل هذه المساحة تزيد عن عدّة فدادين؟! هل أدّى نوم المحتجين فيها بتوقف عمل الهيئات الحكومية، وخسارة المليارات كما يدَّعون؟ ماذا يُنتج ميدان التحرير ليؤدَّى لوقف الحال وارتفاع الأسعار؟!! هل المُتحف الفرعونى يحتوى على الكنز الذى يملأ خزائن مصر كل يوم؛ ليقبض الموظّفون المرتبات؟!

انتظر دقيقة لإعطائى فرصة للإجابة، وأعادنى صوته الرزين لأجواء الميدان، كنت أمر منه وأنا عائد من عملى بالمجمع فأصاب بحالة خشوع، قبل الإجازة بيومٍ شاهدت بالقرب من الشوارع المحيطة رجال الجيش والمخبرين السريين يُنظِّمون المرور، منعوا الناس من دخول الميدان، خوفًا من الرصاص والاختناق.

سألنى العجوز مرة أخرى كاسرًا صمتى : "ماذا يشكل هذا الميدان ؛ كي يقوم البهوات بتعيين حكومة جديدة، تحرق السجون، وتطلق المساجين على الأهالى جبراً لينهبوا الأرزاق، وتُعلن حظر التجوال، وتستدعى الجيش من أرض المعارك؟! ماذا يوجد بميدان لا تزيد مساحته عن عدة فدادين؛ لتهتز أركان دولة بكل جبروتها وسطوتها ونفوذها؟!" واستكمل أسئلته كأنّنى أملك الإجابة : "ماذا فعل الثوار ليحصلوا على تلك القطعة الغالية من بلادنا؟!"

ما هى الخُطَّة الجهنمية التى خلعت مفاصل الأجهزة، لتتخبط ويتم القبض على الوجوه القديمة ؛ لأنّها شاخت ليعيدوا من جديد القمع فى ثوب جديد؟!"

فوجئت بعمّ "غنيم" الذى لم يخرج من البلدة يحتضننى، ويسألنى بذهول عن حال المدينة والانتفاضة، قال : "أنا متهيأ لى ده حلم يا "حسن" أفندى، معقول الناس ولّعت بمراكز الشرطة، وصرخت بالشوارع دون خوف؟!"

رد عليه العجوز : "حَلم إيه يا شيخ "غنيم" واستكمل : "الحكومة امبارح اعتذرت عن قتل الناس، رئيسهم قال فى شفقة : "اتركونى أكمل خدمتى وأخرج بكرامة"! أشار علىّ قائلاً : "الأستاذ عارف كل حاجة، مكنش حُلمًا يا "غنيم"، ده النور اللّى انطلق على البلد كلّها ؛ ليَحيل حياة الظالمين لرعب ".

تذكّرت أنّنى قلت لزوجتى حين أعلنوا حظر التجّوال وهروب المساجين، واقتحام البيوت : "إنَّ ميدان التحرير يمتلئ نوراً ودفئًا رغم برودة الطقس"، ذُهلت حين اقترحت عليها أخذ العيال، والنوم مع المحتجين لأنه المكان الآمن وسط المدينة.

قالت بثقة : "إنّها شاهدت الميدان فى قناة تليفزيونية، لم تتذكّر اسمها، وظهرتْ الكاميرات التى وضعتها السلطات على المبانى المحيطة ؛ لتراقب المحتجين وتغتالهم حين يعم الظلام، صمتت فجأة، وقالت : "انتقلت روح الميدان للشقة، فامتلأت الحجرات بالبهجة والضياء".

أجلسنى العجوز بجواره وطبطب على ظهرى وطلب شاى وصاية، وفتح التلفز المغلق فشاهدنا الميدان المملوء بالبشر، قال العجوز: "أىّ قوة تلحّفوا بها لتذهل العالم، ليشاهد كلّ البشر معركة الشهداء على الهواء".

كنت أعلم أنَّ يومى الأول فى القرية لا يمكن أن يمـر دون أن أزور أمـى التـى اسـتقبلتنى باكية بمنزل أخى، حضنتنى، وقالت : "جبت القسوة دى كلّها منين؟!!"

التمرد

انتظمت حياتى بعد زواجى من "علية"، كانت تحبنى، أنجبنا ثلاثة أطفال، توتّرت حياتنا على الصمت، تحدّد لكل منا مهمة مُحددّة للمحافظة على استمرار البيت، وصحة الأبناء، لم نتحدّث إلاّ فى الأكل والشرب والمذاكرة، حواديت الأهل.

فُوجئت فى اللَّيلة الماضية بصراخ أخت زوجتى فى التليفون قائلة : "الحقنا يا أستاذ، المخابرات هتموتنا فى التليفزيون، المخابرات بتقبض علينا، علشان بنطالب برحيل البلطجية، اعمل حاجة، قل لزمايلك، روح النقابة، بلغ بتوع حقوق الإنسان"، لم تعطنى فرصة لأتحدث، كانت كالمجنونة، والصراخ يُحيطها من كلِّ جانب.

كنت دائمًا أفتح السّماعة حتى لا تعتقد بأننّى أخونها مع إحدى زميلاتى، فسمعت زوجتى المكالمة قالت ببلاهة : "يا عينى عليكِ يا أختى، شوف لها حل يا خويا، اتصل بزمايلك الشيوعيين، أنت مش كنت أيام الجامعة وصَاحبهم؟" قلت لها : "الدنيا متكركبة ومش عارف دلوقتى حد، صحابى القدام مشفتهمش من سنين، أختك بتقول كلامًا غريبًا، أنتِ عارفة يعنى إيه مخابرات، إنتِ عايزة تهدَّى بيتنا يا ولية؟!!"

قبل أن أشرح تركيبة جهاز المخابرات ودوره، قالت : "أنت هتدينى محاضرة، خلاص يا خويا، عينى عليكَ يا أختى"، فجأة قالت : "أنت مش نافع إلا فى الجرى وراء النسوان، إيّاك فاكرنى نايمة علَى ودنى، أنا عارفة أنّك مرافق زباين المكتب، وبتروح تزورهم فى بيوتهم، وتعاشرهم عينى عينيك"، قلت لها : "اخرسى " كان ابنى الصغير شاهدًا على ما جرى، فذهب للنوم حزيناً.

نزلت بغيظ للشارع بعد إغلاق باب الشقة بقوة، وجلست على المقهى وحيدًا، كان الرواد يتحدثون ويحلّلون موقف الملتحين الذين تحالفوا مع الجيش ليحموا البلاد من الوقوع فى الفوضى، انبرى كثيرون للحديث عن خيانتهم، بعضهم دافع عن موقفه باستماتة، تشكّك آخرون فى نية الجيش، وتحالفه مع الرئيس المخلوع، أصوات كثيرة طالبت بالكفِّ عن الحديث فى سيرة الجيش ؛ لأنَّه أمل البلاد الوحيد.

لم يتمكّن أحد من استدراجى للمناقشة لأدلو برأيى فى المحاكمات وملاحقة المجرمين، قمت من على المقهى مخنوقًا من الضجيج، بعد أن ظلّ التلفاز يصرخ ليحافظ الناس على بلادهم، ويوقفوا التخريب.

وقفت أمام "عبده" الفكهانى، اشتريت كيس برتقال، وتوجهت للمنزل، وجدت زوجتى تتابع الأحداث المشتعلة أمام مبنى التليفزيون لتطمئنّ على أختها، لم ترنى، فألقيت بالكيس وسط الصالة ليجرى حبات البرتقال وتملأ أرضية السجادة، اختفى بعضها تحت كنبة الانترية،

سحبت فيشة التليفزيون لأغلقه، صرخت فى ابنى الذى كان مازال يتابع ما يجرى : "أنت مبتذاكرش ليه؟ سيبك من الكذب ده، دول ناس فاضية، وشوية صيع وهيخربوا البلد".

لم ترد زوجتى، فدخلت المطبخ حتى لا ترى وجهى، ناديت عليها بقسوة لتجمع حبات البرتقال المبعثرة، عادت دون أن تنطق ماسكة سكينًا كبيرًا، وقالت "لن أجمع شيئًا!!"

الأجهزة

كانوا يقيسون نبض الحياة، رأيت الكثير منهم واستغربت ؛ لأنَّ كل واحد فيهم يقول كلامًا مختلفًا، يحسّ بالمعانى بشكل غريب، أرهقنى البحث فى تصنيفهم، أمن الدولة، مخابرات، حرس جمهورى، مباحث عامة، كان هناك بعض المخبرين السريين لمخابرات دول أخرى يحاولون فهم ما يجرى وسط الناس، يقيسون المشاعر، وينقلونها لأسيادهم دون أن يدرى أحد.

حين أتحسّس وجودهم أقول بصمت : "يا ربى كل تلك الأجهزة والمؤسسات وملايين المتلصصين، والمبانى الكثيرة المنتشرة فى أرجاء الدنيا، تتكاتف وتتصارع ؛ لحرمان البشر من نعمة الحب".

أصبحت وحيدًا بين المقاهى وشوارع الحى، بعد إغلاق المصالح، أشارك برأيى فى الاحتجاجات التى عمّت البلاد، وأدلو بدلوى فى قصص النهب التى ارتكبتها السلطات، وأنام بالميدان الذى اتفق الجميع على اعتباره قبلة النور.

عاشت زوجتى فى المنزل مع أبنائى كل تلك الأيام، تابعوا الأحداث وقالوا رأيهم، أبدعت زوجتى خلال تلك الفترة فى عمل صوانى، وأطباق غريبة لم نأكلها فى تاريخنا الطويل المملوء بالعدس والبصارة، والأطباق المتنوعة لنبات الفول والبطاطس.

كانت آرائى معارضة لمعظم رواد المقهى، كنت أحثُّهم على التفكير فيما ينقله المسئولون عبر شاشات التلفاز، دعوتهم ليستفتوا قلوبهم ومصلحة أبنائهم فيما يجرى حولهم.

شاركت بقوة فى الأحداث التى جرت فى الحىّ، أصبحت علامة على الرأى المخالف لما تبثه الأجهزة المختلفة، لم أكن أعرفهم فى البداية، لكنَّهم تكاثروا حولى، المخادع والخبيث والمجرم والشيطان والمرعب، كلّ هذه الوجوه كانت ترصد خُطواتى وآرائى، وتسجّلها بقوة ؛ أعرفهم حين يطلق أحدهم معلومات وسط رواد المقهى لتقسيمهم وسماع انطباعاتى.

قال بعد جلوسه بجوارى مُترددًا : "البلد حالها وقف، الناس مرعوبة، مش عارفة تنام، الحرامية فى كلّ حتة، حدثت مشاحنات كثيرة لا نعرف مداها"، قلت له : "يا راجل أيام وتعدى" .

اليوم لست جاهز لأية مناقشات، أعيتنى الأيام السابقة بسبب إصرار العديد من الناس على أنَّ الانتفاضة لن تُحسّن الأحوال، وأنَّ عودة النظام والأمن هم الضمانة الوحيدة للاستقرار.

فُوجئت به يقترب من وجهى، وقال : "أنا عارف أنك تعبان، لكن اسمع منى كلمتين، أنا اسمى "صلاح" من سوهاج، عشت حياتى بالحى دون أن يسمع صوتى أحد، أهل زوجتى أثرياء ويعيشون بهذا الحى من سنين، لم أطالبهم بإرثها ؛ لأننا تربينا على أننا أبناء رجال"، واستكمل : "ربيت أولادى على الحب"، أخرج محفظته ليرينى صور بناته الثلاث، ووصف شقته التى يعيش فيها معهنَّ، والمعاناة التى يقابلها للمرور من اللجان الشعبية حتى يصل لبيته البعيد عن المقهى، أنهى حكاياته الكثيرة عن والده وقريته بقوله : "الناس تريد عودة الإنتاج والعمل"، قلت له على غير وعى : "الحياة جميلة وفرجه قريب"، كنت مشغولاً بتغير حجر الشيشة، فأعاد حكايات الميدان وهتافات المتظاهرين، وتعاطفه مع الغاضبين.

قال بعد تغيرى حجر الشيشة : "البلد فى أزمة لازم نشوف حل، الثورة لها فضل علينا، على الأقل عرفتنى بسيادتك"، قلت ببساطة : "اسمى "حنا" وأعمل فى صيدلية الشفاء"، قال : "شىء جميل مسيحى يتحدَّث مع مسلم على المقهى بأمانٍ ويحكيا عن حياتهما ويبديا رأيهما دون خوف، وتسأل : "هل كان يمكن أن يحدث ذلك قبل الثورة"، نادى على القهوجى، وقال : "تشرب إيه؟!" قلت : "لا يمكن، اشرب أنت "، طلبت شاى سكر زيادة، فقال : "إنَّ العمر يجرى دون أن نحصل على شىء، اللصوص سرقوا البلد وتركونا للمجهول"، سألنى بوضوح : "رأيك إيه يا أستاذ "حنا"؟!" قلت: "بتعرف تلعب طاولة؟" قال : "هو فى وقت للعب، الحياة كلها تعب قلب".

لم يتحدث كالآخرين، أنهى حديثه عن ضرورة رحيل الطاغية بسؤال وإجابة ردَّدها مرتين : "لكن يجب أن يرحل بكرامة"، قلت لنفسى وأنا استئذنه وأترجل وسط الشارع: "من كان يستطيع منَّا أن يطلب الرحيل بكرامة، كانت سجونهم جاهزة لاعتقالنا، اتهمونى بالخيانة حين سافر أخى لأمريكا، و لم يتفهموا ارتداد أختى عن الإسلام بعد أن طلّقها زوجها، تزوجته دون رغبتها، لم تُنصت لنحيب أمى، حين تزوّج بأخرى وطلّقها، عادت لديانتها الأولى لنصرف على أولادها المسلمين، قالوا علينا "أنتم كفرة"، حاولوا طعنى باعتبارى نصف مواطن، رغم أنَّى وُلدت فى منازل الحى، وعشت مثلهم أعانى المرض رغم عملى بالصيدلية".

فُوجئت بجارى الملتحى يحتضننى بود، لم يكن يتحدث معى أبدًا، وقال : "عامل إيه يا "حنا"؟!" قبل أن أرد، استكمل : "توفيق ربنا معنا، البلد مش هتقع إن شاء الله، إحنا فى أمان، ربنا قال كده فى قرآنه"، تركنى وهو يقول : "سلّم على "أم مينا" والعيال".

قال الشباب الصغير الذى كان يبيع المخدرات والبرشام فى الشارع الجانبى، متزعمًا اللجنة الشعبية : "مساء الخير يا عمّ "حنا" معاك الأمان"، كان أحد الملتحين يجلس بجواره أثناء تحيتى، نظر من بعيد فى غيظ لوجهى، وقال : "شلاطة.. شوف بطاقته!!"

الحياد

جلس الثائر وسط عشرات الشباب على مقهى صالح، وقال لزملائه : "السياسيون المحنّكون لا يفهمون بخُطط الحرب، ولا يعرفون وحشية النظام، يفكّرون بعقلية الشلّة، يبحثون عن البطولة الزائفة، أضاعوا فرصتنا ليلة الأمس، جمعوا بقايا مناصبهم فى صمت، وغادروا الميدان بناءً على طلب السلطات، لم يفهموا معنى الفرصة الأخيرة ".

ردّت زميلته التى أظهر وجهها الأبيض وعيناها الواسعتان وقمتطها بالغطرة الفلسطينية قوة مضافة لجمالها، سخرت من حكمة الشيوخ قائلة : "إنّهم يشاركونهم النهب، تخلّفوا اليوم، وتركونا وحدنا نواجه البطش، امتلأت صحف اليوم بوجوههم وهم يباركون السلطة باسمنا، فكّروا بطريقة الباغى للحصول على المجد، لم يكن يهمهم رسالة الانتفاضة ؛ لاستكمال مهامّ الثورة، والحصول على الحياة، ضيّعوا بجبن وخسّة فرصة الانتصار، تركونا نخوض معارك الشوارع، واقتلاع الكمائن وحدنا، تواطؤوا بخسة وهم يطلقون علينا البلطجية لكسر عزيمتنا".

انضمّ لاجتماعهم شاب يافع، شد كرسيًا، سلّم على الجميع، وقال : "عند مدخل التوفيقية تجمّع المجرمون بالملابس المدنية بالمئات ؛ لاقتحام مجلة الدعوة الإسلامية، جروا الشيوخ على السلالم"، ردّ آخر : "لم تكن مجلة الدعوة المقصودة، كان مركزًا حقوقيًا ادعى أصحابه أنه مع مطالب المنتفضين، طالهم الغدر، ليصمتوا للأبد".

قالت "رضوى" التى كانت تتفهّم ما يجرى دون تدّخل : "منذ ساعتين كنت على المقهى المجاور، شاهدت المجرمين يغتالون براءة العاملين بالمقر، أخذوا بعض الأوراق والأسطوانات وفجروا المكان".

فجأة أعلن قائد الشباب المبيت فى الميدان، طلب من كل واحد أن يتصل باثنين من أصدقائه للحضور، وقال : "يمكنك أن تطلب من كل صديق أن يتصل باثنين من أصدقائه لنملأ الميدان هذه الليلة".

انطلقوا نحو النور، وتخلّفت البنت ذات القمطة الفلسطينية لتحاسب القهوجى، لحقت بهم متأبطة يد زميلها الأسمر.

قام من على المقهى محاولاً اختراق الجموع والأصوات المتداخلة يبحث عن نفسه، قرر العودة لمنزله والمبيت وسط أهله، سمع تلفاز المقهى يؤكد اختراق البلطجية حرمات المنازل ؛ قال أحد المارة بجواره : "سمعت بالأمس أنَّ البلطجية فوق الطريق الدائرى، يرشّون البيض على زجاج السيارات لتتوقف، ويجبرون أصحابها على توقيع عقود بيع وشيكات على بياض، يستولون على متعلقاتهم، ويصيبوهم بعلامات تظهر فى وجوههم وأجسادهم طوال العمر".

اتجه لشارع رمسيس مقررًا العودة، قابله صديق يعمل بإحدى المراكز الحقوقيـة، انتقـل من الحى الشعبى إلى حى المعادى ؛ ليعيش مع أسرته بعد أن فتح الله عليه، احتضنه وسـأله عن صحته وسلامة أولاده، رد قائلاً : "الدنيا اتغيرت، الصحبة المخلصـة فى القلـب"، كـان ودودًا رغم عينيه المنشغلتين دائمًا، قال مبتسمًا: "عندى موعد مـع زمـلاء حقـوقيين لمناقشـة أوضـاع الثورة، سوف أعود لنستمتع الليلة بالسـماء وهتافـات المنتفضـين وسـط الميـدان، ونتـذكر مـا فاتنا"، فرد عليه بتلقائية : "أنا تعبان وهروح أنام"، لكن صديقه الودود أصر على بقائه، طالبه حضوره اللقَّاء ؛ ليرى بنفسه انطباعات زملائه عن الثـورة، رغـم تـردده، لكنّـه وجـدها فرصـة لمشاهدة هذا العالم الخفى.

دخل الشقة الواسعة التى تمتلكها إحـدى السـيدات، وحوّلتهـا لمنتـدى للتنفـيس، أحـسّ بزحامٍ شديد، الأصوات متداخلة، وجوه غريبة مختلفة كأنَّهم ضحايا حـرب، الجميـع يتحـدّث فى نفس اللحظة التى يستمع ويتابع فيها كلَّ شىء.

نظروا إليه فجأة، عرفه صديقه بأنّه يعمل معه بالمركز الذى يملكه، اطمأنَّ الجميع، عادوا للشباك ؛ للتعرف على ما يجرى.

أحس أنه بشقَّة مجانين، حاول الخروج ؛ لكـنَّ زميلـه اسـتوقفه قـائلاً: "أنـت الآن تعمـل عندى، ولن ترحل قبلى، سوف تنتظر لنهاية الاجتماع"، قالت إحدى السيدات فى الأربعين مـن عمرها : "أحسّ بنفسى أتطهّر، أنا على استعداد للتنازل عن كلَّ شىء مقابل الوطن الغالى، هذا هو الفرق بيننا وبينهم، لا يمكنهم أن يتنازلوا عن السلطة حتى لو تـم تـدمير الـبلاد"، ودعـت الجميع للتطهّر.

قال آخر : "الأقباط مظلومون يجب أن نضع مطالبهم ضمن أولويـات عملنـا"، رد آخـر : "لا نريد أن نُفجّر الوطن، هذه قضايا فئوية ليس وقتها الآن، نحن مع مطالـب كـلّ المصرـيين بالحرية"، نهره آخر، وقال : "يجب أن يطالب الجميع بحقوقهم، هذه هـى اللَّحظـة الفاصـلة، إن لم تطالـب بحقَّـك الآن، سيضـيع للأبـد، يجـب أن يـتم التنسـيق بـين الجميـع لترتيـب الأولويات".

صمت الجميع فجأة اتجهت عيونهم نحو مدخل الباب، كـان رجـل فى الخمسـين يـدخل مبتسمًا، سلَّموا عليه بحرارة وتعاملوا معه كأنّه آلة، حين جلس على رأس المنضدة قال أحدهم : "حديثك اليوم على قناة الجزيرة أوضح موقفنا"، قال آخر : "كان مطلباً جيـدًا الـذى طرحتـه على السلطات لتشركنا بالحوار، نحن مصريون، ونفتخر بأنّنا أول من رفع مطالب الثورة".

تحدّثوا جميعًا ليثنوا على ظهور كبيرهم فى الصحف والفضائيات وإعلان موقف الجماعة، لم يعجب بعضهم طريقة الثناء والمداهنة، فقال : "كان يمكنك التنديد بالمجرمين الـذين أخلـوا الميدان بالقوة"، ردَّ بصلف كأنّه يقول أنتم لا تفهمـون فى اللُّغـة الحقوقيـة، وألقـى بحكمتـه : "يمكنك أن تقول كلَّ ما تريد، دون أن تدين أحدًا!"

قال أحد أتباعه : "هذا هو ما تعلّمناه منك، اتَّهِم الجميع كما تشاء، لكن التزم الحياد والموضوعية حتى لا تقع فى المحظور"، قال الرجل المعلم : "العمل الحقوقى كالصراط المستقيم، أنت تسير على طريق كشعرة الرأس لا تراه، يجب أن تحسّه حتى تضمن سلامة العمل، ولا تقع فى مالا يُحمد عقباه".

ردّ أحدهم متشفيًا : "أحد المراكز أصدر اليوم نداءً للاستقرار طالب بدعم حكومة الرئيس، واستمراره بالسلطة حتى لا تقع البلاد فى الفوضى"، رد الزعيم بثقة : "ده شغل أمن الدولة"، فصمت الجميع.

كان يعلم من صديقه الذى يُحدّثه بالتليفون كلّ عدة شهور أنَّ أمن الدولة تُدير ملف الحقوقيين، وتتصل بالجميع، وتناقش معهم الأنشطة، وترتب مع بعض أتباعها بالحركة بعض القضايا والمواقف.

أكّد صديقه أنَّ خروج العمّال للشوارع سوف يُرعب النظام، إنَّ دخول المصانع وهيئات الحكومة على الخطّ هى الضربة الأخيرة، قال الزعيم : "يجب أن تأخذوا حذركم، فالمطالب الفئوية يمكن تنظيمها عن طريق عناصر الثورة المضادة، إنَّ المخربين والمضربين سوف يتمّ حبسهم دون رحمة.. لا تُحرضوا الناس، ليس دوركم".

"يجب أن تُركّزوا جهودكم على بيان المطالب، لا تنسوا آلياتكم فى الرصد والتوثيق والتوعية، إنَّ عمل السياسى يختلف عن عمل الحقوقى، ويختلف عن عمل النقابى، فى اللّحظات الحاسمة يجب أن نسأل أنفسنا من نحن حتى لا نتوه ".

دخل أحدهم على الخط، كانت بدلته الأنيقة وشعره اللاّمع علامة على حديث الثقة، التوى كالثعبان ثم فتح فمه بالحكمة قائلاً : "إنَّ العشوائيات إذا رفعت مطالبها سوف تتحول مطالب الإصلاح لثورة الجِياع"، قال صديقه : "لا تقل على مطالب العشوائيات ثورة جِياع".

قال زعيمهم : "لا نريد الخوض فى التفاصيل، يجب أن ننهى عملنا، وكتابة بيان يوضّح موقفنا ومطلبنا العادل باستدعائنا للحوار، باعتبارنا خبراء وحكماء، قال الجملة الأخيرة بوضوحٍ وقوة أذهلت الجميع : "نحن ضمير المجتمع".

انتابته مشاعر غريبة، تذكّر فجأة أخواته و"عيسى" القهوجى و"سيد" الفكهانى، و"محمد" المكوجى، و"بدر" الفوّال، و"عزيزة" الكوافيرة، أحسّ بهم يطالبونه بالرحيل، قال لنفسه : "هل مطالبهم ثورة للجياع؟!"

لم يتحدّث معهم أو يرد على تساؤلات بعضهم برأيه، كان يتذكّر أحداث الرعب التى مر بها الحى خلال الأيام الماضية، قال لنفسه : "لم تكن قصة خيالية ما شاهدته بنفسى، هذه

حكايات حقيقية شاركت فيها، لكنّه لم يتخيل أبدًا أن يطلب أحد البلطجية بالشارع الذى يعيش فيه بطاقته ؛ ليمر لمنزله!"

فُوجئ بصديقه يطلب منه الرحيل قائلاً : "الاجتماع انتهى"، كان صديقه مملوءًا حيوية، يمشى بالشارع مفتوح الصدر، يسلّم على وجوهٍ كثيرة يعرفهم دون أن ينظر إليهم.

حكايات وحكايات سمعها فى هذا اليوم من بشرٍ مختلفين، كانت تنضح وجوههم بالكذب والمداهنة والهزيمة، تذكَّر فجأة والده وهو يُعانق جاره العائد من السجن فى قضية إحراز سلاح بدون ترخيص، بكى فى حضنه، والتأم جرح المسجون، كأنّه لم يكن بالسجن كلّ هذه الفترة التى زادت عن عشر سنوات.

قابلهم شخص غريب قوى البنية مُتجهّم الوجه، قال لصديقه : "أنت تراقب الوضع عن بعد، ولست منخرطًا فى الأحداث، وسخر منه مُرددًا : "هذه سمات العمل الناجح"، أنهى حديثة بملاطفة غريبة ضاحكًا بوجه صديقه : "عامل مناضل يا حرامى"، كان يتحدّث بكُره، نظر إليه فارتدَع من عينيه، حين ابتعد عنهم، قال لصديقه : "ماذا فعلت فيه؟!" ردَّ ببساطة : "رافقت حبيبته!"

كانت رحلة طويلة ما بين الشوارع المحيطة بالميدان والمقهى، ومقر السيدة التى جعلت من مكتبها مُلتقى للشوشرة، وتَدارُس خُطط الحياد والموضوعية، سأل صديقه ببلاهة : "قادر تعيش وسط كل دول إزاى؟" ردّ ببساطة : "هؤلاء هم عائلتى الجديدة"، قبل وداعه قال : "عيالك عاملين إيه؟!" قال : "كويسين، الثلاثة فى الثانوية، وجبت شغالة، بتساعدنى فى تربيتهم".

دقت الساعة الثانية عشرة ليبدأ حظر التَّجوال، احتضنه بحبّ، وقرر أن يرحل، تذكّر قولته: "خلِّى بالك من نفسك".

جهنم

عـاش بمـدافنها آلاف البشر مـن أبنـاء القـرى ؛ لأنَّ صـوت ورائحـة أقـدامهم لم تُعجـب أسيادهم، يغدرون بالأبرياء لشكِّهم فى نيتهم التى رغَّبت فى صلاة الفجر حاضراً، يهجمون على بيوت الضحايا لأنّ أحد المرشدين السريين لجهازهم المرعب استشوى مبلغ الرشوة، فبلـغ عـن المتهم، وكتب بتقريره بالبنط الأسود : "ملتحى، ويواظب على الصلاة".

تسأل "حجاج" وهو يتسلّق أسوار مبنى مباحث أمن الدولة بمدينة نصر عن حجم دموع الأمهات والزوجات، والبنات اللاتى ا غتالت قلـوبهم المتوحشـة روح عـائلهنَّ الوحيـد ؛ ليخفـوا النور عن عينيه عشرات السنين.

أبدعوا فى مُلاحقة الناس، أحكموا ببراعة الخناق على الأبرار، ليحسروهم على كونهم بشراَ وأبناءَ لهذه البلاد التى تُسمّى أمّ الدنيا، قـال "حجـاج" بقسـوة : "يجـب حـرق كـلّ ملفـاتهم، وهدم أسوارهم".

لكنَّ المجرمين كانوا يرغبون فى محو الماضى، وإيقـاع الجميـع فى الحـيرة، مزّقـوا بأنفسـهم المستندات التى تؤكّد تلصّصهم على الزوجات والبنـات للوقيعـة بـين الأهـل والجـيران، أخفـوا بإجرام قوائم المرشـدين السريين، وتجـار المخـدرات، وفـرق الظـلام التـى جعلـت أبنـاء الزنـا يجمعون عرق الضحايا فى زكائب مملوءة بالذهب، ويهربون به بعد رشوتهم كل ضابط بِطـنّ مُرجان!!

تأكَّدوا من إخفاء جرائمهم، فتركوا أبواب الزنازين مفتوحة، ليمـرّ العائـدون مـن عملهـم مذهولين، وهم يسترجعون ليالى الضحايا وتاريخ القهر.

لكنَّ "حجاج" كان يصرّ على السير مع المنتفضين الذين انطلقوا فى شوارع وميادين البلاد يبحثون عن مكاتبهم السرية ؛ ليتأكّدوا بأنفسهم بحرق تلك القلاع الحصينة.

جلست على المقهى وشعرت بالرعب الصادر من قلوب الجميع بعـد قيـام أمـن الدولـة بترك المستندات التى تدين عملاءها فى الشوارع قصص الخيانة.

أحسست بأنَّ الجميع يخاف مـن الفضـيحة، قـال "زيـنهم" المـزين بانـدهاش حـين علـم بانتشار قوائم مخبرين أمن الدولة : "تحتوى على أسماء الحىِ كله، لكنَّ النَّاس درجـات، لكـلّ واحد فينا رقم ودرجة، ويمكن فضح الجميع"، قال أحـد كلابهـم المتخفَّـى فى الملابـس المدنيـة لجارِه : "يمكننى إبلاغ الضحايا التى حرمتهم النوم بعـد قـراءة اسـمك بـين العمـلاء، انكشـف سرك".

بالأمس القريب كان كبير الحىّ يتباهى بأنَّه مرشد أمـن الدولـة المثـالى، ويعتـزّ بصـداقة ضباطهم، كان ذكر اسمها فى الشارع يحنى الرؤوس، يكفى أن تقول "أمن الدولة" بملء فمـك، فيهتز كرسى العرش، نشرهم كبير المجرمين بالأحياء ليحموا الكرسى، أخفينا رؤوسنا لسنين حتى لا نرى حقيقة جهازه الذى يقبض الأرواح، وينشر الظلـم، ويعيـد إنتـاج القهـر، ليظـلَّ كـرسى السلطان علامة على تلقَّى الأموال والعز والنفوذ، وقهر الأبرياء.

اليوم يخفى الناس وجوههم، حتى تزول الأسرار التـى قـام المجرمـون ببراعـة بتفجيرهـا ؛ لينعم النـاس بـالحيرة، تعلـن السـلطات الجديـدة حمايـة الملفـات القديمـة والحديثـة للبشر الضحايا، يتفرغ عملاؤها الجدد فى إعادة تصنيفنا لدرجات وأرقام لحمايـة كـرسى العـرش.. أىّ عرش؟!

اتجه الناس فى كل الأحياء والميادين إلى مقرات أمـن الدولـة، وأشـعلوا الحريـق، وهتفـوا بسقوط الأمن والدولة، أحالت السلطات ببراعة التلصّص عـلى الضـحايا فى غـرف النـوم لمـادة فُكاهية وسط المقاهى، محت من ذاكرتهم توحّش اللصوص، وأخفت أبشع جرائمها فى السـطو على أرواح الناس وضمائرهم.

هتفت "رضوى" أمام المبنى بوزارة الداخلية، وقالت للضابط : "سوف ندخل لنتأكّـد بـأنَّ المستندات لم يتم حرقها"، قال الضابط الذى كان شريكًا فى اللعبة : "يـا شـباب كـلّ شىء تمـام، قبضنا على الضباط قبل أن يشعلوا النار فى ماضيهم القذر".

سمح لـ "رضوى" وزملائها بزيارة القلعة التى استضافت عـلى مـدار السـنوات الخمسـين أطهر رجال الحى لتخفيهم عـن النـور، خرجـت منتشـية هـى وأصـدقاؤها دون أن تـدرى أنَّ المستندات المزوّرة، الحقيقة التى تركوها سوف تظلّ علامة على قهرهم الفاجر.

سرق الناس الملفات، وباعوها لعملاء الأمن حتى لا تنكشف أسرارهم، تأكّدنا بأنَّ العملاء الحقيقيين يتمتّعون الآن بالأمان، بعد أن أخفت السلطات جرائمهم!!

فى هذا التوقيت أكّد التلفـاز فى خـبرِ عاجـل أنَّ جهـاز أمـن الدولـة تـم حلُّـه وتفكيكـه ؛ ليتحول نشاطه للأمن الوطنى، قال "زينهم" بسخرية وحسرة لروّاد المقهـى : "جهـزوا التقـارير الجديدة عن أهل الحى، فمكتب الأمن الوطنى يطلب مرشدين!!"

الفُجر

قال لرفيقه الذى جرى بعيدًا، والرصاص ينطلق فوق رؤوسهم، محاولين العودة للميـدان لاقتحامه مرة أخرى : "إحنا هنروّح يا روح أمك، مش إحنا متفقين أنّنا جايين نموت هنـا، مـش ده اتفاقنا؟"

ما هـذه القـوة التـى دخلـت قلـوبهم، ليقفـوا فى مواجهـة السـلطات محـاولين الرجـوع للميدان الذى تمّ اغتصابه وإخلاؤه بالرصاص، وهم ينطلقون ويهربون تحـت دوى الطلقـات، ثم يعاودون الرجوع دون خوف؟!!

ألوان وأصناف من البشر لا يمكن تصنيفهم، حـين يـأتى الظـلام تشـكّ فـيهم جميعًـا، لـن تعرف أبدًا من معك ومن ضدك، لا يمكن أبدًا أن تجيب على هذا السـؤال : "متـى سـيطلقون الرصاص؟"

قالت لأحد المنظمين : "السيارة التى تمر بها وسط الميدان لتـؤمّن المخـارج تثـير الخـوف، وتعطى انطباعات سلبية بأننا غـير مـؤمّنين"، نظـر إليهـا أحـدهم مرتابًـا، وقـال لزميلـه : "سر بالسيارة زى ما أنت عايز"، وأشار عليها ليوضح موقفهم، لم ترد عليه، تركته وسـارت باتجاهنـا نحو بقعة الميدان، جرى وراءها معنفًا، متجـاهلًا نصـائحها، قالـت : "تركتـه يسـير دون إرادتى كأنّنى خرقة بالية، لن أسمعك".

نظرات العيون المنطلقة تستدعى اليقظة، إطـلاق الرصـاص ينبـت الحـذر، كـانوا ينـوون قتلنا، لم يكن يهم من يموت، المهم خروج المحتجين الليلة من الميدان بأىّ ثمن.

أحسسنا بغدرهم وهـم يتقـدّمون بـالمُجنزرات، ينطلقـون فى صـفوف مُتراصّـة تسـبقهم العساكر المجهّزة للحرب، وقفنا فى وجوههم، تصدينا لتقدمهم، لكنَّ إطـلاقَ الرصـاص المتنـوع بالميـدان أذهـل الجميـع، انطلقـت المجنـزرات وسـط المجتمعـين تلاحقهـم، تفكّكـت الكتـل المتراصّة، فرت للشوارع الجانبية.

أثارت قوات الشرطة المختفية خلـف السـلطات الحـيرة، صرخ أحـدهم بحسرة : "الأمـن المركزى عاد ليحتلَّ الميدان"، تجمعنا قـرب ميـدان "طلعـت حـرب" فى الشـارع المـؤدَّى لبـاب اللوق، بدأت معركة الشوارع التى مات وجُرح فيها عدد كبير، انطلقت الهُتافـات ضـد المشـير والغفير، هزّت العمارات القديمة بوسط المدينة، لم تتحمّل السلطات صراخ المنتفضين، فنفـذت المجزرة، أمروا المُجنزرات بإطلاقٍ هستيرىّ للرصاص المتنوع، من خلفهـم تقّـدم عسـاكر الأمـن المركزى بعصيانهم، لملاحقة الضحايا.

هربنا ببعض الشوارع الجانبية، عُدنا بعد تسلَّحنا بالطوب، نـادى أحـدهم بجـوارى عـلى الهـاربين تحـت دوىّ الرصـاص : "اجـروا بسرعة لا يهـمّ الفـرار، تسـلَّحوا بـالطوب وعـودوا"،

أحسست أنَّ السماء تُمطر أحجارًا كثيرة، لم يعد أمام العسكر إلا التسلُّح بالطوب، تراجعوا حتى الميدان والثوار يتقدّمون ؛ ليواجهوا الفرقة الجديدة للإجرام، لم يعد بالسماء ضياء، لم يكن على رؤوس الضحايا خوذات واقية، لم يكن على صدورهم واقٍ للرصاص، حاولت مشاهدة النجوم الساطعة، لم تظهر إلا غيوم التوحش، تمكّن المجرمون من تفريقهم إلى الشوارع الجانبية حتى ميدان عابدين.

اتصلت بزميلى لأطمئنَّ عليه، قال إنّه دخل جراجًا قريبًا من ميدان "طلعت حرب" حتى تنتهى المعركة، قلت له : لا تخرج الوضع خطير، قال : "لن أترك الطفل المرعوب بجوارى"، سمعت بكاء الطفل فى التليفون، قال : "إنّ عامل الجراج قام بعمل شاى، وقدّم الطعام للطفل"، قلت له : "خلَّى بالك من نفسك".

بكى زميلى حين قابلته بعد ساعة من الفوضى وقال : " كنت فى مقدمة الصفوف عندما أحضر عسكرى طيب الطفل الصغير المرعوب بجوارى، وقال : "خلَّى بالك منه يا أستاذ"، وتركنا بمدخل البناية بعيدًا عن المعركة، لكن الشباب التفوا حول العسكرى عند عودته لفرقة الإجرام، حاولوا قتله، قلت لهم : "لا يمكن إيذاؤه، لم يضربنا، أحضر الطفل بمدخل العمارة حتى لا تصيبه رصاصات البنادق"، رفع أحدهم كفّه، وضربنى بوجهى لمحاولتى منع الإيذاء العسكرى الذى كان يشبه ابن أخى "إبراهيم" الذى يعمل بالفلاحة.

لم ننم ليلتها وذهبنا مرة أخرى للميدان، قال زميلى حين وصلنا البقعة: "الميدان بيلُق!!"

كانت الوجوه التى تنتظر الموت كثيرة، خرجوا مُضحّين بأنفسهم، كانت تصرخ بجوارى مع رفيقها الجديد : "فين السياسيون؟ أنا قابلت "وزة بتاعة المظاهرات والمعارضة"، قالت كلامًا كثيرًا، هربت منّى حين سألتها : "أين أنتم؟" ردَّت بتعالٍ على تساؤلى : "نحن مع بناء الهياكل، وصفِّ الناس، المرحلة حسّاسة يا دكتورة".

قال زميلى : "إنَّ وجهة نظرهم يجب أن نحترمها حتى ولو كنا مختلفين معها، ليسو خونة ؛ لأنَّهم ليسو معنا فى رؤيتنا للميدان، باعتباره منارة البلاد".

قال الوسيم الذى احتضنت يده : "مش معقول اللَّى نختلف معه يكون خائنًا، لازم نفهم سبب تركهم الميدان"، ردّ زميلى : "لن نخون أحدًا"، تركتنا، ورددت مع الثوار صُراخهم : "الغفير زى المشير".

فجأة ذهبت بعيدًا عنا، قامت بعمل تمارين الطاقة ؛ لتنزل الحب والأمان على الميدان، بهرت صديقها الوسيم، حين انطلق النور فوقنا، شاهدت قمرًا أبيض كبيرًا بحجم الميدان، قريبًا جدًا منا يحمى براءتنا، تقهقر الخوف وتجهّز الجميع للمعركة، تحوّلوا لفرسان يرغبون الشهادة، قال صديقها الوسيم : "بدأت أخاف"، قالت : "نحن لا نؤذى أحدًا"، عند الفجر أخذته من يديه، واتجهت للمقهى.

نشيد الأمل

تختفى الدنيا، ويضجّ البحر تحت أقدامى، يرتعب السمك فى شباك الصيادين، وتنهار السدود، و يعلن العاشقين لآبائهم خلف الممر بأنّهم عادوا مُحمّلين بالزكائب المملوءة أملاً.

كانت تمشى بعيدًا ، خلف البيوت العامرة، تشتهى رائحة الطعام، والنوم على أسرة مصنوعة من الحرير، فاجأتنى بحلمها، قذفتنى بالطوب، وقالت : "سوف أكون هناك فى يوم قريب".

انطلقت خلف المارد، أبغى الخلاص، لم يهمّنى من يشير على جسدى قائلاً : "يا فاشل"

كنت أعرف أنّ العمر الباقى يكفى لأعبر المحيطات، وأعود مستلهمًا صوت الضحايا الذين ماتوا بجوارى محاولين الهروب من اليأس، قال قلبى الحيران: "الليل طويل ويجب أن يمر".

قلت لنفسى : تحية لأصدقائى الذين قتلوا، سوف أُطلق روائح البهجة على أرواحهم لتمتلئ مياه البحر بالأمل، سوف أعيدهم مرة أخرى لمنازلهم."

أحسست أنّ القبطان الذى يُدير الدفةّ يمتلك كلّ التعاويذ ؛ ليجعل كلاً منا فى مكان محدد، ويقوم بدوره على أكمل وجه، حين اعترضت عليه وصرخت فى البحر طالبًا النجاة صَمَّ أذنه، وقال : "من أذِن لك بالهجرة لبلاد بعيدة؟!"

ردد الكلاب وراءه: "يتحمّل المغامر مصيره، لن نسمع عنك قبل ذلك، لماذا قرّرت الموت؟!" قال أصدقائى الذين ماتوا فوق السفينة برصاص الغدر : "سوف تنجو وتحكى حكايتنا، وتعطى لأزواجنا، وأهالينا ذاكرتنا الباقية".

أطلق عسكر القبطان رصاصهم فى قلوب الحيارى، مُدَّعين أنَّ قتلهم هو طريق النجاة، صرخوا مصروعين فى بقايا الجسد طالبين المدد.

تأتينى وتهرب ولم يفارق عينىَ وجهها، ترفعنى من بين الضحايا، وتقول "نحن نؤمن بك، لا تقع، ساند الباقى منا، حتى نكتمل".

واستكملت بحبّ : "ينتظرك المولود لتجمع ونس الأهل، تنتظرك الحبيبة ؛ لتضمّ صدرها وتُدفِّئ قلبها".

رغم الضباب الذى أحاط السفينة إلا أنَّ القبطان يعلم كل ما يدور، يدفعنا للأمام بعيدًا عن الأهل المُشتاقين مُدَّعيًا أنّنا نغرق.

كان يعلم أنَّ الشمس يُمكنها أن تجرح خُطَّته، وتعيده لصفوف الراحلين كراكبٍ عادى، أعلنت الكلاب المحيطة حول كرسيه خلف الأبواب والشبابيك سقوط عرشه، قال : "على جثتى"، تمكَّن القراصنة من قتله، واعتلاء دفة السفينة.

تحطّم قلبنا حين علمنا أنَّ دم أصدقائنا راح دون ثمن.

انتكسنا سنينًا، عادت مرة أخرى تتلمّس روائح النور خلف الموانئ، قالت : "أنت الأمل الذى ينتظره الأهل لتقيهم برد الشتاء".

أيقظتنى دون أن أدرى وتحوّلت لهشيم، أخذت روحى من السفينة الغارقة، قالت "طر معى أكتشف الحب، إنهّا قلوب البشر المملوءة بالامتنان".

انفجرت أجنحة كثيرة بجسدى، طرت ملاحقًا المجرمين، أشارت على منزلٍ بعيد، يعانق على بابه أحد الرجال امرأة.

كان شعرها المفرود يطير ؛ ليَظلّل ذاكرة الرجل، قال أحد الركاب : "عاد الأمل"، وأشار ناحية البر، كانت الأمهات الجميلات تنتظر عودة الغائبين.

قالت امرأة من بعيد : "سوف أذهب لأحضر ابنى من المدرسة المجاروة وأعود قبل وصولهم"، قالت أخرى : "سوف أذهب لأطبخ أشهى الأطعمة "، قالت أخرى وهى تشير للسّماء، وتصرخ فى المجتمعين : "سوف نقيم احتفالاً يليق بعودتهم".

فجأة انحنت السفينة، فصرخت لتوقظنى : "يا روح المخلص، استيقظ قبل فوات الأوان"، قمت ونظرت للغادر الذى تبوّأ مقعد القبطان الراحل، وقلت له : "اعدل المجداف اتجه ناحية الأهل!"

حين سمع نبرة صوتى الآمرة، أدار الدفّة، لنشاهد بأنفسنا الشيوخ وهم يصرخون، فرحين بعودتنا.

قال صديقى الذى عادت روحه لجسده الميت : "كيف سنصل لبر الأمان والقبطان الجديد يتوعدنا بالغرق؟!" فى تلك اللحظة تيقّنت بأنّه يجب إزاحته رغم ارتدائه ملابس المنقذ.

اقترب الشاطئ والسفينة على وشك الوصول للمشتاقين، تذكّرتهم جميعًا، أهلى وأصدقائى أبناء ونساء الحىَ الذين عشت بينهم سنينًا، كانوا يرفعون أيديهم آملين فى وصولنا.

نشر الغادر الجديد لصوصه مُحمّلين بالبنادق فوق السفينة، أحاطوا بنا ونحن عُزّل وأدخلونا إلى القبو.

كان صديقى يحاول الرفض، فجاءته طلقة غادرة، أودت بحياته.

حبسونا مرةً أخرى، أغلقوا طاقة النور، ليعمّ الظلام، كان صوت الحالمين بعودتنا من بعيد يسبّ القبطان الجديد الذى أدار الدفّة؛ لينعم بحرماننا من العودة.

سمعت صراخهم مُنـدّدًا بظلمـه، وهـم يهتفـون بـالموت لكـلّ المجـرمين الـذين يُـديرون السفن، كانت أصواتهم الأمل الوحيد للنجاة.

الوراق
يناير - أبريل
٢٠١١

الفهرس